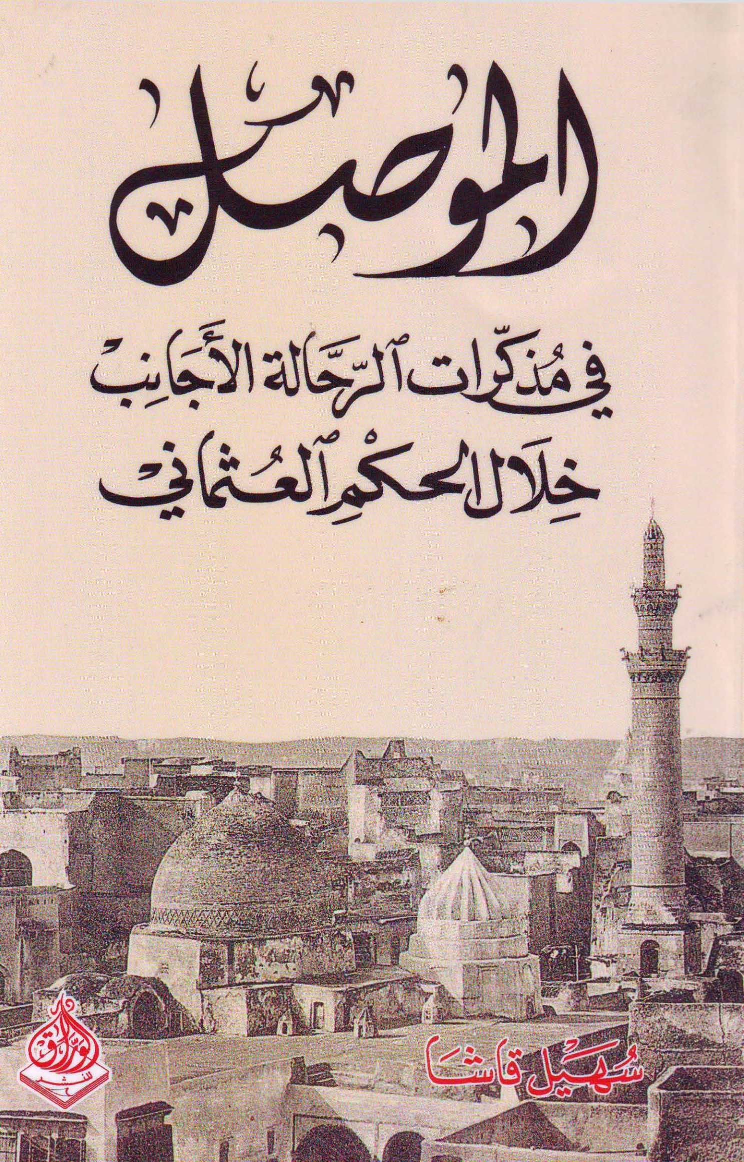


الموصل
في مذكرات الرحالة الأجانب
خلال الحكم العثماني
سهيل قاشا

* اسم الكتاب: الموصل في مذكرات الرحّالة الأجانب خلال الحكم العثماني
* تأليف: سهيل قاشا
* الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة: 2009.

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.
* صورة الغلاف: الموصل عام ١٨٩٣ بعدسة أوبنهايم.
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

First edition by Alwarrak Publishing Ltd. 2009

www.alwarrakbooks.com

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
Suite 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
Fax: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت - الحمرا - بناية رسامني - طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت - لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

سُهَيل قاشا



في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني



المحتويات

تقديم

جذبت الموصل لموقعها الجغرافي ومركزها التجاري ومكانتها الثقافية الكثير من الرَّحالة العرب والأجانب ابتداءً من زينفون الذي وصلها في تشرين أوَّل سنة 409 قبل الميلاد. ومروراً بابن جبير الذي زارها سنة 580هـ ـ 1184م. وابن بطوطة.

وفي العصور الوسطى قصدها قسم من الرَّحالة الأجانب بدءاً من بنيامين التطيلي الذي قدم إليها عام 1173، وماركو بولو عام 1272، وريكالدو بنيني عام 1290م.

أمَّا الفترة التي نحاول أن ندرس من خلالها أحوال مدينة الموصل فهي فترة الاحتلال العثمانية الممتدَّة ما بين سنة 1534 وسنة 1918. وقد زارها عشرات الرَّحالة بدءاً من راوولف الهولندي الذي قصدها عام 1556 وانتهاءً بالميجر سون الذي زارها سنة 1907 والمسّ بيل والليدي درور ، فتركوا لنا في مذكراتهم ومشاهداتهم الكثير من الانطباعات العامَّة والشخصية تخبرنا عن أحوال الموصل ورُقيّها. ونحن في دراستنا هذه سنقتصر على الفترة هذه فنبيّن من خلال هذه المدونات في المذكرات أحوال المدينة الإدارية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية خلال هذه الحقبة من تاريخ الموصل العريق.

ونحن إذ نورد هنا في دراستنا هذه، إنَّما نورد ما وصل إلينا

من المذكرات المترجمة. أو غير المترجمة، والتي تمكنّا من دراستها، وقد فاتنا الكثير من مذكرات الرَّحالة لم نحظ بها، ولكانت تسدُّ فراغاً كبيراً في دراستنا هذه، ومع ذلك فقد استندنا هنا على مذكرات أكثر من عشرين[1] رحالة زاروا الموصل في فترات متقاربة أو متباعدة، هذا أوَّلاً.

وثانياً، ليس كل ما يورده هؤلاء الرَّحالة هو حقيقة أو من واقع المدينة، فلا تكاد تخلو من دسّ وأغراض شخصية مكشوفة من اليسير الوقوف عليها خاصة إذا ما تردَّد القول بين رحالَين زارا المدينة في فترة متقاربة، ولهذا ندعو القارىء الكريم، والباحث اللبيب أن يقف على ذلك بنفسه، وهذا أولى للناحية العلمية الرصينة...

وأخيراً في دراستنا هذه أهملنا كثيراً من القضايا التي اعتبرناها من باب الإطالة والإسهاب كالكلام عن الفتن والاضطرابات الداخلية، أو الحوادث الأرضية والطبيعية، (أو وصف الجوامع والمساجد والكنائس وغيرها)، واقتصرنا مع التركيز المكثف على النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية كما سبق وأشرنا، على أمل اللقاء في بحوث أُخرى نتناول فيها ما تركناه الآن.

---

(1) نورد أسماء الرَّحالة الذين استندنا في بحثنا على مذكراتهم بحسب تاريخ مجيئهم إلى الموصل: راوولف 1556، تافرنييه 1644، تيفنو 1644، فنشنسو 1656 اوتر 1736، لانزا 1756، نيبور 1766، أوليفييه 1791، جاكسون 1797، ميرزا أبو طالب 1803، بكنغهام 1816، وليم هود 1817، جون اشر 1864، بادجر 1849، بدج 1889، ويكرام 1898، الميجر سون 1907 وغيرهم يجدهم القارىء الكريم في هوامش البحث.

أولاً: نظام الحكم والإدارة:

قسم العثمانيون العراق إلى ثلاث ولايات هي الموصل وبغداد والبصرة، وعلى رأس كل ولاية من هذه الولايات والٍ يجري تعيينه وعزله من قبل السلطان. فيقول الأب دومنيك لانزا[1]: «. . . إنَّ الباب العالي هو الذي يرسل أو يعيّن باشا الموصل، ولكنَّه كثيراً ما كان يضطر حذراً من إغاظة باشا بغداد إلى عزل أو نصب من يطلب هذا الباشا إقصاءه أو توليته، والحقيقة هي أنَّ كلّ باشا يأتي الموصل وهو غريب عنها، لا يكون له فيها من السلطة إلَّا بقدر ما يسمح له بها الوجوه المتنفذون في البلدة. وهؤلاء حسب رغباتهم يثيرون الشعب على الباشا أو يلقون الشقاق بين الينكجرية كي يقتتلوا بينهم بحيث يبقى الباشا في السراي، غير قادر على استعمال سلطته»[2].

وكان الوالي يُعتبر بمثابة نائب السلطان لأنَّه كان يتمتع بسلطة مطلقة فله قيادة القوات المسلحة وله فرض الضرائب وله تطبيق الأنظمة والقوانين وإقامة العدالة. وعلى عاتقه تقع إشاعة النظام واستتاب الأمن. وعلى كاهله يرتكز عبء تنفيذ الأشغال العامَّة وإدارة الأعمال الحكومية. ويرتبط بسلطته مرؤوسوه وهكذا نرى بهذا التعداد للمهمات أهمية سلطاته وخطورة الدور الذي أسند إليه القيام به رغم أنَّ ولايته كانت صغيرة الرقعة.

---

(1) الأب دومنيك لانزا: ولد في تورينو في إيطاليا عام 1718، دخل الرهبانية الدومنيكية في روما سنة 1749 له إقامتان في الموصل الأولى من 31 كانون الثاني 1754 إلى 22 آذار 1761، والثانية من 25 آذار 1764 إلى 23 أيار 1770م. عرَّب مذكراته عن النص الإيطالي القسّ روفائيل بيداويد 1951.

(2) مذكرات الأب لانزا ص15.

يقول الرحالة أوليفييه (1791)[1]: «مساحة هذه الباشوية قليل جداً، لا يمتدّ في الجزيرة إلى أبعد من اسكي موصل وكسيك كوبري، لكنَّها تمتدُّ في الجنوب إلى تكريت، وفي شرقي دجلة. إلى الزاب الكبير وإلى جبال كردستان الأولى...»[2].

ويؤكِّد لنا ذلك الرحالة نيبور (1766)[3] أيضاً بقوله: «إنَّ ولاية الموصل صغيرة تمتدُّ على جانب دجلة الشرقي بمسيرة تسع ساعات جنوباً حتى نهر الزاب الكبير، وبمسيرة ثماني ساعات باتجاه الشمال، وهذه المنطقة محتشدة بالسكَّان. أمَّا الجانب الغربي من نهر دجلة فإنَّه خالٍ من السكَّان ويكاد هذا القسم من ولاية الموصل يعدّ متمماً للبادية... ويقدّر عدد القرى الواقعة في ولاية الموصل بنحو ثلاثمائة قرية..»[4].

وإذا ما كان الوالي شهماً غيوراً متوقد الحماسة شاعراً بمسؤولياته بارعاً في تصريف الشؤون كان لإقليمه أن يعيش في سلام ووئام واطمئنان، وإذا كان على العكس من ذلك شخصياً جشعاً طماعاً طموحاً متعصباً أو بالأحرى إذا كان خائر العزيمة متردِّداً متحرجاً ضعيفاً، فإنَّ السكَّان حينئذٍ يقعون تحت نير التصرفات الكيفية والأعمال التعسفيَّة فيئن الشعب تحت وطأة

---

(1) أوليفييه رحالة فرنسي رحل إلى مصر وفارس وديار الأمبراطورية العثمانية بأمر الحكومة الفرنسية. وكتب مذاكراته بثلاثة أجزاء.

(2) مذكرات أوليفييه ص6. حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

(3) كارستن نيبور: رحالة ألماني ولد عام 1733. بعثه ملك الدانمرك ببعثة علمية سنة 1760 فزار مصر وجدة وصنعاء ومنا ومنها إلى بومبي في الهند ومنها قصد الخليج العربي وفي أوائل آب وصل البصرة من عام 1765 ووصل الموصل في 18 آذار 1766 وانتهت حياته سنة 1815.

(4) مذكرات نيبور ص113 ـ 114.

الضرائب ويرزح ويتألم تحت غائلة غزوات القبائل البدوية وغاراتها، تلك القبائل المطمئنة من نتيجة أعمالها الوحشية لعدم ضرب يد العدالة لها بالعقوبات الصارمة ومَنْ أمِنَ العقوبة أساء الأدب.

يقول الرحالة دبليو أي ويكرام[1] في معرض ما أسلفنا به: «إنَّ الوالي الذي يحكم مدينة الفساد والفوضى هذه، ربَّما يكون إنساناً طيِّباً تؤهله طيبته ونزاهته لعمل لا يفلح في إحداث أي تبديل حقيقي، فيثبط همَّة أقوى الأشخاص وتقتل فيه بقيَّة من الحماسة والوهم..»[2].

ثم يضيف قولاً آخر عن الوالي الذي عاصره بالمدينة ويصفه على ضوء معلوماته عنه فيقول: «... وطاهر باشا[3] والي الموصل الحالي ذو أصل ألباني أبيض فوداه في خدمة السلطان ولم تكتحل عيناه بالتأكيد بجبال بلاده منذ نعومة أظفاره... ومع هذا فالأرناؤوطي هو أرناؤوطي أبداً. وخذها قاعدة عامَّة هي أنَّ الرجال الذين يمتُّون إلى هذه القومية الغريبة هم خير موظفي العثمانيين لا سيَّما في المناطق التي تكون من ضمن واجباتهم.. المحافظة على التوازن بين مختلف القوميات مسلمة ومسيحية...»[4].

ويضيف أيضاً: «... لقد كان طاعن السن، طويل القامة،

---

(1) دبليو، أي، ويكرام: كاهن إنكليگاني أسكتلندي، عيّن في العام 1897 ـ 1898 عضواً في بعثة أرسلها رئيس أساقفة كانتربري إلى أثوربي حكاري لتعليمهم. وقد تجوَّل في كردستان الشمالية الشرقية وظلَّ في المنطقة عشر سنوات. وغادر العراق سنة 1921م.

(2) ويكرام ـ مهد البشرية ـ ص77.

(3) تولى طاهر باشا حكم الموصل أوَّل مرَّة من سنة 1305هـ إلى 1307هـ 1887 ـ 1889 وثاني مرَّة من (13 تشرين أوَّل 1910 إلى 24 تشرين أوَّل 1912).

(4) ويكرام ـ مهد البشرية ـ ص77.

مهيباً، ذا وجه قصير، يحفُّ به شعر قصير ولحية بيضاء، وكان ذكيّ الملامح ضاحك الثغر بشوشاً وهبته الطبيعة خلقاً جذّاباً لا يسمو إليه خلق، تمكَّن بفضله من الخروج سليماً من ثورتين وقعتا في بلاده. . . زد على هذا فإنَّه عفّ اليد إلى أبعد حد. . . بمقياس الموظفين العثمانيين. . . إلّا إذا كانت الرشوة كبيرة جداً. . »[1].

ولسوء الحظ كان الولاة الأخيار من الكائنات النادرة، فقد كان العراق في هذه الحقبة يتمتع بسمعة سيِّئة لا يُحسد عليها لدى الباب العالي في الآستانة فهو في نظره منطقة نائية فقيرة موبوءة وهو مسرح للقلاقل والاضطرابات المتواصلة. وكان المرشحون للمناصب الإدارية من ضآلة العدد بمكان فلم يكن السلطان ليرسل إلى هذه الأصقاع في أغلب الأحيان سوى الموظفين الفاشلين أو المغضوب عليهم والضالين.

وهذا ما حدث في أواخر الدولة العثمانية بالنسبة لولاية الموصل، ولكن برزت هناك فترة ذهبية يتكلَّم عنها الرحالة بكلّ إسهاب ألا وهي فترة حكم الأسرة الجليلية[2] التي استمرت من سنة 1726 إلى سنة 1834م.

فأوليفييه مثلاً يقول: «. . . ليست الموصل مدينة بكلّ هذه النعم لحكمة الباشا وحدها، بل هي مدينة للثقة التي نالها هذا الباشا بتأييده

---

(1) المصدر السابق ص78.

(2) الأسرة الجليلية: أسرة عربية قدمت الموصل من حصن كيفا بشخص جدها ملكو (عبد المالك) سنة 1600 لغاية التجارة حيث توفي فيها عن ولد واحد وهو عبد الجليل الذي تنتسب إليه الأسرة. وكان مالك الحصكفي مسيحياً نسطوري المذهب ودفن في كنيسة شمعون الصفا. وكانت وفاته في حدود سنة 1640م. هذا ما أفاد به لنا الدكتور محمد صديق الجليلي في الأوّل من أيلول سنة 1968.

كل سنة وبأنَّ له رجل من أقرب أقربائه سيخلفه منذ أتت أسرة عبد الجليل كثيرة العدد والثراء والموصلية الأصل إلى حكم هذه الولاية، رأى المولى الأعظم مضطراً نوعاً ما إلى قبول مطالب الشعب كل سنة وإلى إرسال فرمان التأييد وكيف يرفض هذا الطلب حينما تنصبّ الضرائب بانتظام في خزانة الدولة وأوامر الباب العالي تنفذ بسرعة، وكيف يمتنع عند وفاة الباشا من نصب خلفه الذي أجمعت الأعيان على الإشارة إليه، عندما يكون المرشح أيضاً عند الوسائط التي تروِّج التماسه أكثر من غيره...»[1].

أمَّا نيبور فيقول في معرض هذا الكلام: «... حدث أن عيّن في السنوات الأخيرة على الموصل والٍ من القسطنطينية غريب عن أهل الموصل فشاغبت عليه أسرة عبد الجليل وأخذت تثير سكَّان المدينة وتحرِّض القرى العربية واليزيدية للتمرُّد على الباشا وعصيان أوامره، ممَّا اضطر الباشا إلى أن يحتفظ دائماً بقوات كبيرة من الجنود... ولذا فقد كان من السهل على أسرة عبد الجليل تحقيق مآربها في أن يكون أحد أفرادها باشا الموصل خاصة وأنَّ هذه العائلة أصبحت تعدّ من العائلات الراقية في البلدة وصار الأهالي من مسلمين ونصارى يعاضدونها ويسمعون كلمتها، ثم إنَّ الباشا الذي يعين منها لا يحتاج إلى قوَّة كبيرة من الجيش... ولمَّا كانت من مصلحة أهالي الموصل أن يكون واحد منهم هو الوالي... ذلك لأنَّه لا يحصر اهتمامه بجمع المال والحصول على نفقات سفره فقط...»[2].

(1) مذكرات أوليفيه ص9 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

(2) مذكرات نيبور ص112.

ويخبرنا الأب دومنيكو لانزا (1750) عن تعيين الباشا أو إقالته وعن حياته بقوله. ما ذكرناه آنفاً[1].

ولمَّا كانت الحال على هذه الشاكلة فإنَّ هؤلاء الولاة كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على الفوز برضا ولي نعمتهم وسيِّدهم السلطان عن طريق شراء الحظوة في أعين حاشيته بأفدح الأثمان. وكانوا يلجأون إلى نفس الأساليب إذا شكا محكومهم من مظالمهم بتوجيه استغاثات إلى الباب العالي طالبين عزل المتغطرسين الغاشمين عن مناصبهم.

فيقول أوليفييه في مذكراته عن هذا الوضع: «... لما كان الباشا قادراً على حفظ سلطته بنفوذه ونفوذ أسرته لم يكن يحتاج إلى حراس عديدين، وبما أنَّه قد اشترى باشويته بأمواله الخاصَّة وبما أنَّه واثق من استيفاء ما كان قد أعطاه شيئاً فشيئاً لم يلجأ إلى إرهاق الشعب بالضرائب كما يفعل أمثاله الذين استقرضوا بفوائد عظيمة وهم مضطرون إلى تسديد الدَّين، وبثقته من كونه لا يعزل، نظر إلى حكومته كملك خاص يستحسن إصلاحه فاعتقد أنَّ من مصلحته منع الإذلال والرشوة والأفعال التعسفيَّة وأن يشجع الزراعة والصناعة والتجارة لكي تزيد له منابع ثروته...»[2].

ثم يأتي إلى المقارنة بين باشا الموصل وباشا عقرة مبيناً مكانتهما من شعبهما وولايتهما، أستحسن أن أورد جزءاً من هذه المقارنة للوقوف على أوجه الخلاف، وعلى جلية أمر الباشوية أيام الحكم العثماني إذ يقول: «... وهكذا لما كان حرس الباشا الخاص ليس سوى مائتي رجل، لأنَّه محاط بالرأي العام ومعضد

(1) مذكرات لانزا ص15.

(2) مذكرات أوليفييه ص10 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

بحب الشعب، فمن أمن بمائتي رجل مخلصين له أكثر من باشا العقر مثلاً في وسط جيشه الذي يبغضه والذي هو مستعد لأن يكون تحت راية رئيس يعطيه أكثر منه باشا العقر يحتاج إلى جيش كي يدوم على اغتصاباته، وهذا الجيش كيف يمكن تغذيته إذا لم يكن هنا اختلاس وسلب واستبداد، حرس بسيط يكفي باشا الموصل في خدمته في قصره وحمل أوامره إلى الخارج وهذا الحرس يُصرف عليه من واردات الولاية العادية لذا كان الفرق عظيماً بين حالتي هذين الباشوين، أحدهما متمكن بإرادة السلطان وآخر عاصٍ عليه فهو لا يستطيع حفظ رأسه، أحدهما يستطيع النوم هادئاً وسط حرسه كما في وسط أهله، أمَّا الآخر فيقيم المتاريس في عقر داره، ولا يشعر باطمئنان كافٍ مع وجود بنادق وبشتوات وخناجر حوله، أحدهما يستطيع الذهاب وحده بلا سلاح إلى أيِّ مكان شاء والآخر مضطر إلى إحاطة نفسه بجهاز مهيب من القوَّة، الحقيقة تظهر بثقة لأحدهما، لكن الآخر لا يكلم إلَّا بالتدليس والتملُّق، أحدهما يسمع في كلّ مكان تسبيحات الشُّكر ولا يرى إلَّا ما يعبّر عن السعادة والآخر لا يسمع سوى عويل ألم التعساء الذين يعذِّبهم أو أنَّه لا يلاحظ حوله سوى الصمت المعبر عن عدم الرضى...»[1].

وعلاوة على ذلك فقد كان على الوالي قبل أن يباشر وظيفته أن يتعهد بدفع مبلغ معين لخزينة السلطان في كلّ يوم، ذلك المبلغ الذي كان يمثِّل ضرائب ولايته. فإذا أخلَّ بتنفيذ شروط هذا العقد فإنَّه يظلّ مواجهاً خطر العزل والتسكُّع مذموماً مدحوراً. ولكنَّه من الجهة الأُخرى إذا تعجَّل في تنفيذ بنود العقد أكثر ممَّا يجب فإنَّ

(1) المصدر السابق ص10 ـ 11 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

المقامات العليا لدى الباب العالي لا تتردَّد في لفت نظره وقرص أُذنه إلى أنَّ خزينته كما هو ظاهر، تنعَّم في بحبوحة وسراوة حال فتفرض عليه هذه المقامات مبالغ إضافية جديدة يجب أن يؤدِّيها لهذا الباب وهكذا يرتفع رقم الابتزاز.

فكانت البراعة الفائقة إذن في أن يتريَّث الوالي في تسديد المبالغ المفروضة عليه ما وسعته إمكانيات التريُّث. وأن يشتري في الوقت نفسه ضمائر وذِمم أفراد حاشية السلطان. وكان هذا كلّه يكلِّف ثمناً فاحشاً ولما كان الموظفون لا يتقاضون رواتبهم في أوقاتهم المعيّنة وبصورة منتظمة فإنَّ كلّ واحد من هؤلاء كان يبذل كلّ ما في وسعه من جهود لابتزاز أكبر المبالغ الممكنة من دافعي الضرائب وممَّن شملتهم الجباية. وفي عين الوقت إرسال أقل مبلغ ممكن من النقود إلى خزانة الولاية.

وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ الولاة كانوا قليلي الاهتمام بجباية الضرائب بأنفسهم، لأنَّ هذه الجباية كانت مهمة قد تتطلب في معظم الحالات إرسال حملات عسكرية حقيقية لمواجهة مقاومة أفراد العشائر وامتناعهم عن الدفع ولذلك فإنَّ هؤلاء الولاة كانوا يمنحون باللزمة جباية أموال ضرائب الدخول الرئيسية كضريبة الأعناق ورسوم الگمارگ والمكوس إذ يمنح التزام جباية هذه الأموال إلى موظفين صغار سرعان ما يثرون على حساب جماهير الشعب.

يقول نيبور: «... وفي الموصل أخذوا أمتعتي وصناديقي إلى الگمرگ ولكنَّهم لم يفتشوها ولم أدفع شيئاً من النقود ما عدا جزء قليل من الدراهم كالتي نسميها (أجور إخراج گمرگي) دفعتها لأحد المستخدمين حتى ينهي عملية إخراج أمتعتي بسرعة. ويدفع التجار

على كلّ حمل جمل من الأقمشة سبعة قروش ونصف قرش. وعلى حمل الجمل الذي يحتوي على الفلفل وبضاعة أُخرى ستة قروش وثلثي القرش. أما إذا كانت البضاعة محمّلة على حمار أو بغل فإنَّها توزن ويدفع «الباج»[1] عليها بالنسبة للأحمال السالفة الذكر».

أما عن منزلة باشا ولاية الموصل فيحدِّثنا عنها نيبور قائلاً: «... إنَّ الباشا الذي يعين والياً على الموصل يكون عادة من درجة باشا ثلاث طوغات[2] وقد كان أمين باشا[3] والياً على الموصل عند قدومي إليها وكانت درجته باشا بطوغتين، غير أنَّه كان يأمل أن يناله الترفيع عن قريب إلى الدرجة الأولى أي يصبح باشا بثلاث طوغات. وقد أكّد لي الناس بأنَّه يدفع سنوياً للباب العالي كمية من المال تتراوح ما بين الخمسة والثلاثين كيساً والأربعين كيساً[4] وكل كيس يحتوي على خمسمائة قرش أي إنَّه يدفع للسلطان ما بين 17500 ـ 22500 قرش...».

ويحدِّثنا أوليفييه عن ذات الموضوع فيقول: «... وجد في الموصل أحياناً باشا ذو ثلاثة أطواغ، أمَّا الباشا الحالي[5] فليس له سوى طوغين، وعليه يكون في وقوع مع الفرس تحت راية

---

(1) مذكرات نيبور ص103.

(2) الطوغ شارة تشريفية عثمانية تتكون من خصلة من ذيل الفرس.

(3) أمين باشا الجليلي ابن الحاج حسين باشا تولى حكم الموصل عدَّة مرَّات. شارك في الحرب الروسية العثمانية وأُسر فيها ثم رجع إلى العاصمة فأكرمه السلطان والباب العالي.

(4) الكيس: إنَّ مقدار محتويات الكيس الواحد هو خمسمائة قرش.

(5) هو الوالي محمد باشا الجليلي.

بغداد، يتبعه سبعة بكات سنجق[1] ومائتان وأربعة وستون زعيماً[2] أو تيمارياً[3] وهؤلاء يمكنهم مع جبلييهم[4] تقديم قطعة تتألف من نحو ستمائة رجل ويجب إضافة نحو مائتي سباهي إلى هذه الخيالة، والينجرية[5] يتراوح عددهم بين ستة آلاف وسبعة آلاف وحرس الباشا لا يبلغ المائتي رجل...»[6].

ويرجع نيبور ويحدِّثنا عن قوَّة الباشا بقوله: «... وبقيادة الموصل نحو عشرين ضابطاً كبيراً يدعون صقلي أغاسي[7] وتناط بهم واجبات خطيرة منها أنَّهم يقودون الحملات التي توجّه لمحاربة اليزيدية والعدو، وهناك الايج أغاسي ويتكون من مائة شخص ويطلق على مثل هذا العدد التفنكجية (الجنود) أيضاً ويتكونون من ثمانية أعلام (بيارق) ولكلّ علم خمسة عشر جندياً أو من مائة وعشرين فارساً. وإلى جانب هذه القوات فإنَّ في الموصل مائة وخمسين إسباهياً ولهم امتيازات خاصة من السلطان وأولادهم يكونون إسباهية أيضاً...»[8].

وبعد انتهاء فترة الحكم الجليلي، تلك الفترة الشعبية التي تمتعت أسرة الجليليين في حكم الموصل إذ كان من مصلحة أهالي المدينة أن يكون واحداً منهم هو الوالي بخلاف الباشا الأجنبي

---

(1) بكات سنجق وتعني أمراء الولاية مفردها بك سنجق وبكلر بكي أمير الأمراء.
(2) الزعيم أو الزعامة نوع من الإقطاع ورتبته آلاي بكي أي أمير الأمراء.
(3) التيمار نظام عسكري عثماني وهو يعني الجنود الإقطاعيين.
(4) يقصد بهم الجنود التابعين لهم.
(5) الينجرية يقصد بهم الجيش الانكشاري أو الينكجرية.
(6) مذكرات أوليفيه ص5 ـ 6 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.
(7) صقلي أغاسي: كلمة تركية تعني صاحب اللحية والمقصود بهم كبار السن ملتحين.
(8) رحلة نيبور ص115.

الذي لا يعرف مدى بقائه في الحكم إلَّا اهتمامه بجمع المال والحصول على نفقات قصره بكل وسيلة ووسيلة.

يقول المسيو بوتا الذي كان في الموصل عام 1845: «... إنَّ الوالي[1] الذي أتحدث لكم عنه معروف في كافة أصقاع الأمبراطورية المترامية الأطراف بأنَّه غول من الغيلان. ومنذ أن وطئت قدماه هذه البقاع هنا برَّر كل التبرير شهرته السيِّئة التي يتمتع بها من سوء الأعمال: وإنَّني سأقتصر على القول لمعاليكم بأنَّ هذا الإقليم قد سلم يداً بيد إلى لص شقي قاطع طريق حقيقي في شخص هذا الوالي الذي لا يتورع عن اقتراف كل الآثام، إذ لا قدسية لشيء في نظره. فلا حرمة لديه لحياة وأموال وشرف العوائل والأسر. وقد تألمت ممَّا جرى فعله هنا... تألمت من شهر المظالم المرتكبة كما تألمت من وقاحات الباشا الشخصية ومن قحَّة حياة أفراد حاشية الأراذل... ولكن مساعي الشعب أدَّت إلى عزل الوالي موضوع البحث من منصبه بعد فترة قصيرة...»[2].

هكذا كان الولاة الأتراك همهم السلب والنهب والاغتصاب بأيّ ثمن من الأثمان لا يهمهم مصلحة رعاياهم بشيء إلَّا هم بطونهم وجيوبهم فتفاقمت الأمور وازدادت الفتن والاضطرابات فاختل حبل الأمن وازدادت الشكاوى ممَّا حمل الباب العالي أن يرسل بين الحين والآخر مفتشاً له صلاحيات واسعة على عدَّة ولايات ومهمته مراقبة المواظفين ومن ضمنهم الولاة ووضع حد لسوء تصرفاتهم. وكدليل واحد لقولنا هذا نورد الحالة عام 1892

---

(1) كان الوالي حينئذٍ كريتلي محمد باشا يوناني الأصل من جزيرة كريت.
(2) دي فوصيل ـ الحياة في العراق منذ قرن ـ ص79 ـ 80.

لدى تعيين من يُدعى عمر باشا[1] والياً على أقاليم الموصل وبغداد والبصرة الثلاثة إذ أظهر بادىء بدء القنصل سيوفي بعض التشاؤم يوم علم بالخبر فيكتب لنا يقول:

«. . . إنَّ هذه المهمة صعبة شاقة بقدر ما هي مؤلمة، نظراً لأنَّ المظالم والتعسفات قد بلغت من الكثرة والتفاقم منذ أعوام في كافة فروع الإدارة المدنية منها والعسكرية بحيث إنَّنا لم نجد له أي فرع من الفروع ناجياً من الإصابة ببلاياها. . .»[2].

ولكن يعود القنصل سيوفي وقد تملكته الدهشة لدى رؤيته تصرفات عمر باشا فيفضي إلينا بعجبة قائلاً: «. . . والآن قد أبصرته منهمكاً في أعماله أستطيع أن أدلي بشهادة ناضجة منصفة عنه فأقول إنَّ به مزاياه كما له عيوبه. ولكن قلَّما توجد مزاياه لدى الموظفين الأتراك فهو مثال على الاستقامة. وإنَّ عدالته في أغلب أعماله تساوي صلابته ونشاطه. . لقد طبق بعض العقوبات القمعية الزجرية التي ترقى إلى النظام القديم والتي يستحق المؤاخذة عليها، لأنَّ القوانين الحالية لم تعد تسمح بتطبيقها كأمثال عقوبة الجلد وعقوبة أُخرى تنحصر في الطواف بالمجرم في شوارع المدينة يتقدمه منادٍ (دلال) مكلَّف بإعلام الجمهور بجرم الرجل المُطاف به. .»[3].

هذه العقوبات التي أكل الدهر عليها وشرب منذ عهد بعيد قد

---

(1) عمر باشا هو الشهير بالفريق قائد الإصلاحات في العراق، وصل الموصل في 4 تموز سنة 1892 وتركها في 16 نيسان سنة 1893 برفقة الهيئة التفتيشية التحقيقية برئاسة شاكر باشا.

(2) دي فوصيل ـ الحياة في العراق منذ قرن ـ ص87.

(3) المصدر السابق ص87.

فعلت مفعولها فأرهبت ذوي النوايا السيِّئة ومنعت وقوع الكثير من حوادث الشر. وتجاه هذه الأعمال المختلفة أصيب جميع السكَّان بحيرة وذهول وذلك لأنَّهم لم يتعودوا على شدَّة مطلقة من هذا النوع. أمَّا شرفاء الناس وصلحاؤهم فقد غمرهم الشعور بالسعادة برؤية هذا القطر وقد تخلص من العديد من صغار الطغاة وأخذ يعيش في ظل نظام قوامه إنصاف الناس وطمأنة نفوسهم.

ثم يورد المسيو سيوفي شهادة شخصية عن الوالي عمر فيقول: «. . . إنِّي لم أر بين مئات الموظفين العثمانيين الذين عرفتهم موظفاً تضاهي نزاهته نزاهة هذا الرجل واستقامته وهذا الرجل هو عسكري أكثر من كونه رجلاً إدارياً فتراه يتعجل بل يلجأ إلى العنف في حل القضايا. ولكن إذا تركنا جانباً هذه الظاهرة فبوسعنا القول إنَّ له مزايا عالية. فهو صارم تجاه المجرمين، وهو في الوقت نفسه على استعداد تام لقبول توبة التائبين وندم النادمين وهو عطوف على الفقراء رحيم بهم، وهو أب مناصر للمظلومين وهذا الرجل يعمل ليلاً ونهاراً حتى لقد أضرَّت بصحته مشاغله الكثيرة فوقع مريضاً. . .»[1].

بعد كل هذا الشرح المسهب عن الوالي الحاكم المطلق في ولايته لا بدَّ من التطرق إلى أنَّ الوالي لم يكن وحده يقوم بإدارة شؤون الولاية إنَّما كان يساعده «المتسلم» وهو نائبه وأقرب الناس إليه وولي عهده، يقوم بتسليم مهام إدارة الولاية عند مغادرة واليها لأيّ سبب من الأسباب، وتعيينه بهذا المنصب يأتي من الوالي نفسه دون الرجوع إلى سلطة أعلى.

(1) ذات المصدر السابق ص88.

ولما كان «المتسلم» عادة ولي عهد الوالي ونائبه، فقد كان يحظى لديه ـ في حال حضوره أيضاً ـ بأهمية خاصة وقد يدعى حينذاك بقائمقامه.

وكذلك كان يساعده الكتخدا الذي كان بمثابة الوزير للوالي ومعاونه ومدير مكتبه الخاص لمختلف الشؤون الإدارية والعسكرية والمالية.

علاوة على ذلك كان للولاية جهاز حكومي يتبع الوالي مباشرة ويضم عدداً من الكتَّاب والمترجمين ويختص بتحرير كتب الوالي ورسائله باللغات المتداولة وكان يُسمَّى هذا الجهاز «ديوان الإنشاء».

كذلك الموظفون الماليون وهم مسؤولون عن جمع الضرائب وإرسالها إلى القسطنطينية عن طريق «الدفتردار» ومن المناصب المالية المشهورة «الخزندار» وهو الأمين الموكل بصندوق المال والإشراف على أمور شتى منها حفظ سندات ديوان الأصناف وتسجيل الفرمانات والضرائب وتثبيت مقدار ما استحصل منها وغيرها من الأمور المالية.

أمَّا القوات المسلحة فكانت تتكون من الجنود الإقطاعيين والجيش الثابت (الينكجرية) والجند الخاص أو المرتزقة، فالجنود الإقطاعيين وهم الفرسان الذين حازوا على إقطاعيات في أراضي الموصل. وكان من واجبهم السباهية والأتباع وأن يحافظ على مستوى تدريبهم العسكري طالما كانت وراثتهم للإقطاع نفسه متوقفة على مقدار ما يمكن أن يقدمه للدولة في الحرب[1].

---

(1) من يرغب بالبحث مفصلاً عن القوات المسلحة في تلك الفترة، يرجع إلى كتاب الموصل في العهد العثماني تأليف عماد عبد السلام رؤوف ص234 ـ 252.

يقول الأب لانزا: «وكل الأتراك تقريباً ينتسبون إلى إحدى الأورطات[1] ليحتموا بواسطتها من الغير. . .».

أما كارستن نيبور فيقول: «. . . وإلى جانب هذه القوات فإنَّ في الموصل مائة وخمسين إسباهياً ولهم امتيازاتهم الخاصة من السلطان، وأولادهم يكونون إسباهية أيضاً. وبما أنَّ هذه المدينة ليست ثغراً لذا فإنَّه ليس فيها ثكنة (قشلاق) أي إنَّه ليس في الموصل مقر لفوج من الينكجرية. إلَّا إنَّ في الموصل عدداً غير قليل من ضباط الينكجرية ومهمتهم تجنيد المتطوعين من أهالي البلدة إذا اقتضت الحاجة وعندها يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها الينكجرية. . .»[2].

أمَّا الجند الخاص فكانت الدولة العثمانية قد أباحت للوالي أن يدخل إلى خدمته عدداً من الأتباع من مختلف الأنواع وفقاً لإمكانياته وقد بلغ مجموعهم في أواخر القرن الثامن عشر زهاء المائتي رجل كما أشار إلى ذلك أوليفيه.

ومن هؤلاء كان هناك مائة رجل بعنوان «إيج أغاسي» وتعني بالعربية أغا الداخل المختص بشؤون السراي، وهم في خدمة الباشا نفسه.

يقول نيبور: «. . . فإذا خرج الباشا ساروا خلفه على أجمل هيئة وافرة الخيل، ولكل منهم سائس يسوس فرسه، وكلهم أتباع للخزندار أي خازن الباشا، وللسلحدار أي حامل السيف، غير أنَّ الثاني يتولى في الغالب قيادتهم في الحرب، والأول يكون رئيسهم

---

(1) الأورطة: المركز. وكان تعداد الأورطة في الولايات العثمانية الأُخرى يتراوح بشكل عام بين 300 و500 رجل (جب وبوون ج1 ص90).

(2) مذكرات نيبور ص115.

في المدينة، والموظف الثالث هو الجوخدار أغاسي وأربعة وعشرون من هؤلاء الإيج أغاسي، الذين لكل منهم وظيفة خاصة دائماً بالباشا. . .»[1].

ويصف لنا نيبور أكثر موظفي القصر، فمن راجع رحلته يلاحظ الكلام عن الإيج كيلارجي وهو الموكل بحفظ المربيات وتحت إمرته أكثر من كيلارجي، والإبريقدار وهو الذي يجيء للباشا بالماء ليغتسل، وحرم كهيه سي وهو رئيس طباخي القصر وغيرهم.

كما يتحدَّث عن التفنكجية فيقول إنَّ عددهم بالموصل يزيد عن الأربعمائة فرد يخضعون لرئيسهم خضوعاً تاماً بينهم عدد من النصارى.

وفي حالة إعلان النفير العام يمكن للوالي أن يجمع عسكراً خاصاً يعرف بالسردنكجتي من المسلمين والنصارى على حدٍّ سواء على حد قول نيبور.

أما القاضي وهو أرفع منصب شرعي في الولاية ورأس النظام القضائي فيها. وقد وجد في الموصل منذ الفتح العثماني قاضيان يتبع كل منهما فقه المذهبين السنيين المعروفين الحنفي والشافعي.

والمفتي هو بالدرجة الثانية من الجهاز القضائي للولاية وكان للموصل أيضاً مفتيان أولهما حنفي على مذهب الدولة الرسمي والآخر شافعي ويقوم كل منهما بمساعدة قاضي مذهبه.

ونقيب الأشراف، ووظيفته العناية بأُمور المنحدرين من سلالة الرسول وضبط أنسابهم وتدقيقها ولم يكن لهذه المؤسسة الشرعية

---

(1) المصدر السابق ص115.

أي دور مؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية لولاية الموصل خلال هذا العهد.

ثانياً: الحياة الاجتماعية

1 ـ إحصاء السكّان:

ليس من السهل تقدير عدد سكّان ولاية الموصل خلال الفترة التي ندرسها، فأغلب الظن أنَّ هذا العدد لم يكن ثابتاً بأية حال.

وعلى أية حال، فمن الممكن أن نفترض، أنَّ زيادة كبيرة قد طرأت على سكّان الموصل خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر وقد أشاد الأب لانزا بضخامة عدد سكّانها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقال: «... ولقد حدَّثني المسنون من أهل البلدة مراراً... إنَّ أهاليها كانوا أقل عدداً من الآن بنحو الثلث... لجأ إليها عدد كبير من العرب والأكراد والأتراك ومن نصارى القرى المجاورة...».

ويمضي في قوله: «... إنَّ هذه البلدة خلافاً للظن هي كثيرة جداً بحيث يمكن اعتبارها من المدن ذات الشأن في الأمبراطورية. وبعد أن أقمت فيها وتجولت في أنحائها في ظروف عديدة وتأملت جميع أقسامها. تبينت لي كثرة سكانها الهائلة وفاتحت الأب فرنسيس[1] وعدَّة أشخاص من أهل البلدة لأعرف كم هو عدد سكانها عند ظنهم فأجمعنا على أنَّ عددهم يتجاوز الثلاثمائة ألف نسمة، إلَّا أنَّه لم يكن من الممكن إحصاؤهم بالضبط...»[2].

---

(1) هو الأب فرنسيس كوردانيو توررياني صديق لانزا ورفيق دراسته في روما ومساعده في الموصل للمرة الأخيرة سنة 1771.

(2) مذكرات لانزا ص10.

وممَّا يستند إليه لانزا في تقديره هذا قوله: «... اضرب صفحاً عن الأسباب التي هيأت لنا هذا التخمين، وأكتفي بالقول إنَّه في الطاعون الذي حدث بعد سفري (سنة 1772) أوعز الوالي إلى حراس أبواب المدينة أن يحصوا كعادتهم كل يوم عدد الجنائز التي تخرج من السور. فوجد عند انتهاء الطاعون أنَّ أكثر من مائة ألف ميت دفنوا خارج المدينة. أضف إلى ذلك الكثيرين من الذين دفنوا في المقابر داخل البلدة وخاصة منهم المسيحيون الذين لهم مقابرهم المتصلة بكنائسهم بجوار الهيكل. هذا ما كتبه لي رهباننا من الموصل وزادوا على قولهم إنَّ المدينة ما زالت مأهولة بالكفاية...»[1].

على أنَّ هناك أسباباً قوية تدفعنا إلى الشك في صحة هذه الأرقام الكبيرة إذ إنَّ جميع تقديرات أعداد السكان في القرن التالي (التاسع عشر) لم تكن تتجاوز نصف العدد الأخير. وكان الرحالة سيستيني قد ذكر في مذكراته سنة 1781 ما نصه: «...وعلى العكس من ذلك فإنَّني أعلم أنَّ الموصل في عام 1779م كانت تعد (40,000) من السكان...»[2].

وعام 1817 زار الرحالة وليم هود[3] الموصل وتكلَّم عن سكانها فقال: «... يُقال إنَّها كانت تضم بين أسوارها 20 ألف منزل، وقد دمر منها الثلث، وليس الآن مسكوناً إلَّا النصف الباقي. فإذا حسبنا السكان بنسبة ستة أشخاص أو سبعة لكل منزل

---

(1) المصدر السابق ص11.

(2) سيستيني ـ رحلة إلى القسطنطينية ـ ص149.

(3) وليم هود: ضابط ملازم في الخدمة الإنكليزية، ترك مذكرات تحت عنوان: رحلة من ملبار إلى القسطنطينية.

مسكون يمكننا القول إنَّ عدد سكانها الحالي يربو على 40 ألفاً أو 45 ألف نسمة»[1].

أما جمس بكنغهام[2] فيقول: «. . . ويظن أهل الموصل أنَّ عددهم يتجاوز مائة ألف نسمة لكنَّني بعد إحصاء غير دقيق قمت به ومقارنته لأرقام مختلفة أجريتها أعتقد بأنَّ عدد السكان أقل من نصف ذلك الرقم. . .»[3].

ويُستفاد ممَّا أورده جرانت سنة 1840 أنَّ سكان الموصل بلغوا 30,000 ألف نسمة[4] وهم حسب تقدير بادجر عام 1849 يتكونون من 3350 عائلة[5] أي إنَّ عددهم كان قريباً ممَّا أورده جرانت.

إلَّا أنَّ أوليفييه الذي زار الموصل عام 1791 فيقدِّر عدد سكان الموصل بـ 63000 ـ 65000 نسمة[6].

وبدج[7] فإنَّه يقول في مذكراته: «. . . ولم أستطع أن أقف على عدد نفوس الموصل سنة 1889م إنَّ كل المحاولات الرامية

---

(1) هود ـ رحلة إلى الخليج الفارسي ـ ص218.

(2) جمس بكنغهام: ولد سنة 1786: سافر إلى الهند وأصدر هناك صحيفة ـ كلكتا ـ ثم رجع إلى بريطانيا عام 1823. قام بعدَّة رحلات إلى مصر وفلسطين والأردن والعراق توفي سنة 1855 بعد أن أصدر عدَّة كتب اجتماعية. وصل إلى الموصل في 5 تموز 1816.

(3) انظر رحلة بكنغهام ج2 ص33.

(4) جرانت ـ النساطرة ـ ص28.

(5) بادجر ـ النساطرة ـ ص84.

(6) أوليفييه ص5 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

(7) بدج ـ سر واليس ـ عالم آثاري بريطاني، ولد سنة 1857 تخرج من جامعة كمبردج، وتخصّص بالدراسات الآشورية والعبرانية، أجرى التنقيبات في مصر والعراق في نينوى. منح رتبة فارس تقديراً لأعماله. نشر مؤلفات في تاريخ مصر ووادي الرافدين توفي عام 1935.

إلى إحصاء النُّفوس تبوء بالفشل لأنَّ الشرقي يربط بينها وبين جباية الضرائب وهو لا يجيب على الأسئلة التي توجّه إليه في هذا الصدد إلَّا على مقتضى مصلحته..»[1].

وأمضى مستر شامير يومين يتبصر في الأمر فتوصل إلى أنَّ عدد السكان في الموصل في شباط 1889 يبلغ 63 ألف نسمة... ويقول ساخو: إنَّ السكان يقدرون بـ 42 ألف نسمة، لكنَّه يعتقد أنَّهم أكثر من ذلك العدد[2].

أما مستر سون[3] فيخبرنا عن الموصل: «... الموصل آهلة بالسكان، تبلغ عدّتهم 90 ألف نسمة على تعداد أخير موثوق به»[4] علماً أنَّه كان قد زار الموصل عام 1907م.

2 ـ طوائف السكان:

تميَّزت الموصل، عبر حقب التاريخ، بتعداد العناصر البشرية التي سكنتها. وقد عاشت هذه العناصر أزماناً طويلة، متجاورة، مشتركة المصالح، وعانت من الظروف السياسية والحضارية أوضاعاً متشابهة.

---

(1) بدج ـ بين النيل ودجلة ـ ج2 ص47.

(2) المصدر السابق ج2 ص48.

(3) الميجر سون ضابط بريطاني حلّ في فارس سنة 1902 متنكراً باسم ميرزا غلام حسين شيرازي. عاش في قرى بوشهر يراقب ويدرس. أسره الأتراك في الحرب العالمية الأولى. اتخذ سبيله بعد إطلاق سراحه إلى مصر ثم جيء به إلى البصرة في أوائل سنة 1916 ألف مرشداً عن كردستان الجنوبية. عُيِّن حاكماً سياسياً على مندلي سنة 1917 ثم نقل إلى السليمانية. زار الموصل سنة 1907.

(4) سون ـ رحلة متنكر إلى بلاد ما بين النهرين ـ ج1 ص124.

ومن ناحية أُخرى فقد ساعد نظام الملل العثماني الذي أباح لكل طائفة دينية أن تستقل بشؤونها الطائفية والاجتماعية فتكون لدينا مجتمعاً موحداً أصبح من المتعذر دراسته على أساس قومي أو ديني.

يقول بكنغهام: «... يؤلف المسلمون القسم الرئيس من السكان في المدينة، وهم من نسب متساوية من العرب والأتراك والأكراد..»[1] إلَّا أنَّه بالحقيقة ليس من المستطاع تحديد نسبة كل قومية إلى الأُخرى. خاصة وإنَّ أغلب الأوروبيين لم يكونوا ليميزوا بين هذه القوميات تمييزاً بيِّناً، ويرى بعض القناصل الفرنسيين المعاصرين أنَّ أكثرية السكان هم من العرب سواء كانوا متحضرين أم بداة، أما الأكراد فهم أقلية ذات شأن.

أما نيبور فيذكر في كتاب رحلته: «... وسكان الموصل المسلمون كلهم من السُّنة والقسم الأكبر منهم على المذهب الحنفي أما البقية فهم شوافع ولكل من المذهبين مفتٍ يتبع مفتي القسطنطينية...»[2].

ولم تشهد الموصل خلافاً عقائدياً بين أتباع المذهبين الإسلاميين فيها أو بين المسلمين عموماً وأتباع الديانات الأُخرى في المدينة. وقد لاحظ بعض الرحالين أنَّ المشاكل الدينية لم يكن لها أثر على علاقات الطوائف الدينية ببعض لغلبة العصبية المحلية على الجميع وأنصارهم في بوتقة الحياة الاجتماعية المشتركة.

يقول بكنغهام: «... والذي لاحظته في سكان الموصل أنَّ

---

(1) بكنغهام ـ رحلات ما بين النهرين ـ ج2 ص28.

(2) رحلة نيبور ص112.

تقاطيع وجوههم تميِّزهم عن غيرهم تماماً فكأنَّهم من عنصر واحد تقريباً وقد اختلط الواحد منهم بالآخر وتمازج معه منذ زمن طويل ذلك أنَّ شكل الوجه مدوَّر يختلف عن وجوه العرب أو الأتراك. وشعر الرأس أسود غالباً والعيون صغيرة حادة نفاذة بينما تكون هيئة البشرة مشابهة لبشرات سكان جنوبي إسبانيا..»[1].

ويؤكد بدج ذلك بقوله: «... وكانت العربية هي اللغة الشائعة الذائعة...»[2].

وقد لاحظ الميجر سون الذي زار البلاد متنكراً في أواخر القرن التاسع عشر أنَّ أفراد هذه الطوائف يفسرون تآلفهم مع بعضهم بأنَّهم على اختلاف أديانهم، عرب في الإحساس واللغة ويرتبطون برابطة السكنى بالمدينة فيقول: «... ومن بين جميع مدن سوريا وبلاد ما بين النهرين، يتمتع النصارى فيها بحرية وهم بمنجاة من الاضطهاد، وعلى الوجه الذي يتمتع بنو جلدتهم الذين اضطرّوا إلى السكن مع المسلمين، جنباً إلى جنب، إنَّهم يردون هذه المزية، والحال المستحبة إلى أنَّ المسلمين والنصارى عرب في الإحساس واللغة، وفوق كل شيء هم مرتبطون برابطة التساكن في المدينة، وهي رابطة قوية في الغالب وملمح تراص في مدن الشرق المنعزلة...»[3].

وقد كان تولي آل الجليلي مقاليد السلطة السياسية في الموصل، لأكثر من قرن من الزمن، بمثابة تجسيد حقيقي لهذه الرُّوح المحلية الواضحة، فهم بتفهمهم الكامل لظروف الطوائف المختلفة،

(1) رحلات بكنفهام ص66.
(2) بدج ج1 ص291.
(3) الميجر سون ـ رحلة متنكر ـ ص124.

واتباعهم سياسة محايدة متوازنة إزاءها قد دعموا سلطتهم بحصولهم على ولاء المدينة بأسرها بدلاً من ولاء طائفة دينية معينة.

يقول نيبور الذي زار الموصل عام 1766: «... وحالة النصارى في الموصل أحسن بكثير من حالة النصارى في بقية بلدان الأمبراطورية العثمانية فإنّهم يعيشون سعداء وعلى وئام تام مع المسلمين، ولهم الحق في أن يلبسوا كما يلبس المسلمون وكثير منهم يعملون في خدمة الباشا حتى أنَّ حرم كهياسي (أي رئيس طباخي الباشا) نصراني، كان أبوه يشغل هذه الوظيفة لمدة طويلة عند والد الباشا...»[1].

وفي حصار نادر شاه[2] للموصل عام 1743م أظهر الموصليون مسلمين ومسيحيين مدى تعاونهم وصمودهم سوية بوجه العدو فيقول نيبور: «... وقد كان النصارى يسهمون في هذه العملية مساهمة كبيرة بحيث إنَّ المسلمين يعترفون للنصارى بالفضل لثبات المدينة بوجه العدو كما أظهروا في مواقف مختلفة شجاعة فائقة...»[3].

ومكافأة لهذا التعاون وهذه الوحدة الوطنية سمح الحاج حسين باشا الجليلي[4] بترميم جميع الكنائس في الموصل

---

(1) رحلة نيبور ص115.

(2) نادر شاه ـ طهماسب ـ 1688 ـ 1747. ولد في مشهد وتوفي اغتيالاً في فتحباد سلطان العجم. كان أول الأمر جمَّالاً. دخل في خدمة الشاه ثم بويع له بالملك. فتح آسيا الوسطى وقسماً من هندستان. حاصر الموصل وفشل في فتحها عام 1743.

(3) رحلة نيبور ص113.

(4) الحاج حسين باشا الجليلي ابن إسماعيل باشا. تولى الموصل عدَّة مرَّات، كما تولى حكم عدَّة ولايات عثمانية أخرى. وهو بطل حصار نادر شاه للموصل سنة 1743 حيث أنقذها من غزوته على عروبتها التاريخية. توفي في 25 تموز 1758م.

وخارجها[1] وهذه ما تؤرخه الكتابات الموجودة في هذه الكنائس التي تجددت أو رممت في تلك الآونة.

يقول نيبور: «... وللنصارى في الموصل نحو من كنائس عشر، ولكن معظمها صغيرة جداً، وقد سمح لهم الباشا ببناء عدد جديد آخر وترميم القسم الباقي وتجديده، ذلك لأنَّهم اشتركوا في الدفاع ببسالة عن الموصل أثناء حصارها الأخير عام 1743. وقد بنى النساطرة لهم كنيسة جديدة وكذلك فعل اليعاقبة وهاتان الكنيستان جميلتان وخاصة كنيسة النساطرة التي ليس لها مثيل في جميع بلدان الشرق...»[2].

3 ـ المرأة الموصلية:

المرأة الموصلية كانت تساعد الرجل في سعيه الدائب نحو توفير أسباب المعيشة لأسرتهما، وإذ ليس بين أيدينا شهادات وافية وكافية من الرحالين عن أحوال المرأة إلَّا بعض النتف التي وإن لا تفي بالغرض، إنَّما نكتفي بإيرادها هنا مع الرجوع إلى بعض المصادر الأُخرى.

يقول وليم هود: «... إنَّ السكان في هذه المدينة أقل تحفظاً من غيرها من المدن ولا تحتجب النساء بصراحة كما هو الشأن في بغداد»[3].

وجاكسون[4] يقول بذات الموضوع: «... والرُّوح المحافظة

---

(1) مرحلة نيبور: ص113.

(2) ذات المصدر السابق ونفس الصفحة.

(3) رحلة وليم هود ص3 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

(4) جاكسون ـ موظف ـ شركة الهند الشرقية ـ قصد العراق قادماً إليه من بومباي التي غادرها في 4 أيار 1797.

هنا ليست بمثل الشِّدَّة التي تتميَّز بها المدن الشرقية ذلك لأنَّ النساء من جميع الأصناف لسن محجبات وهن أشبه بنساء البلدان الأوروبية. . »[1].

من هاتين الملاحظتين نفهم أنَّ حياة نساء الأسر الارستقراطية في المدينة تختلف عن حياة غيرهن من عامة نساء الشعب، كما نفهم أنَّه كان للنساء بعض من الحقوق المشروعة فبرز منهن من أنشأن المدارس كرابعة خاتون بنت إسماعيل باشا الجليلي إذ أنشأت جامعاً ومدرسة لتحفيظ القرآن نسبا إليها. وشيدت عائشة خاتون أُم محمود باشا الجليلي جامعاً وأوقفت عليه الأوقاف وقامت فتحية وعائشة خاتون الجليليتان ببناء مسجد ومدرسة أيضاً عام 1780م وغيرهن كثيرات[2].

4 ـ الأزياء:

يقول جمس بكنغهام: «. . . ويلبس الصغار من الأولاد غالباً قرطاً ذهبياً في إحدى الأذنين، بينما تلبس الفتيات حلية أشبه بالزر مرصعة بأحجار صغيرة من الفيروزج معلقة بثقب في الأنف. ويرتدي الرجال اللباس التركي ما خلا العمائم والطرابيش العالية مثل أعالي سوريا بدلاً من القاووق التركي، والسراويل المصنوعة من نسيج صوفي جميل عوضاً عن الثياب القطنية. . »[3].

أما عن ملابس النساء فيقول: «. . . وتلبس النساء رداءً واقياً

---

(1) جاكسون ـ مشاهدات بريطاني في العراق ـ ص223.

(2) من يحب الوقوف على مكانة المرأة في الموصل فنحيله لقراءة كتاب الموصل في العهد العثماني ـ فترة الحكم المحلي ـ لمؤلفه الأستاذ عماد عبد السلام ص356 ـ 360.

(3) رحلات بكنغهام ـ ص66.

أزرق اللون أشبه بما هو مألوف في مصر وسوريا ويستعملن حجاباً من نسيج شعر الخيل الأسود يغطي الوجه كله وبذلك يظهرن بمظهر لا يثير الاهتمام غالباً. .»[1].

أما بادجر[2] فيصف لنا أزياء الموصل على الوجه التالي: «. . . يختلف لباس الذكور في الموصل قليلاً عن سائر مدن الشرق، وللإناث نوع خاص من غطاء يتكون من برنس مربع محشو في قمته وسادة مستديرة سمكها انجان تحتها صحيفة مذهبة توضع على الرأس والرقبة مع عدَّة أوشحة فتشكل نوعاً من العمامة وهي للنساء الشابات مرصعة بالجواهر وسائر الأحجار الكريمة ولهن عصائب ذات زوايا ذهبية وقلائد مصنوعة ببراعة وأقراط وخلاخل وأساور. كل ذلك يثير إعجاب الجنس اللطيف ليس هنا فحسب بل في كافة أنحاء العالم. غير أنَّ كل هذه الزينة محفوظة للبيت لأنَّ المرأة لا تخرج منه بدون الملاءة الزرقاء المتعددة الألوان والخمار المربع المصنوع من شعر الحصان الذي يشدّ على الرأس ويتدلى حتى الحنك فيغطي كل أجزاء الوجه. .»[3].

ولكيما نرسم للمرأة الموصلية الصورة الواضحة لابدَّ من إعطاء اللون الكافي للخطوط العريضة لها عن طريق حديث الرحالة بدج الذي يصف لنا زوجة السيِّد نمرود رسام فيقول: «. . . وفي اليوم

---

(1) المصدر السابق وذات الصفحة.

(2) بادجر مبشر إنكليكاني، له كتاب نفيس جداً عن النساطرة نشره سنة 1852 في لندن يتضمن وصفاً لما شاهده في العراق. يشار إلى أنَّ المعرب هو الأب لوي ساكو ومقالة المحصل حسب رحلة بادجر.

(3) بادجر ـ النساطرة ـ وانظر مجلة ما بين النهرين عدد 9، 10 سنة 1975.

التالي لوصولي جاء رسام بزوجه إلى الشرفة الكبرى وقدمها لي. إنَّها سيِّدة صغيرة تلبس ثياباً من حرير ذات ألوان فاتحة زاهية ويزدان رأسها بعدد من سلاسل من ذهب شُدَّت بها أقراص من عسجد. كما كانت تتقلد قلادة كبيرة من ذهب. وثمة صدرية حول عنقها، كما أنَّها تلبس أساور وخلاخيل من ذهب أيضاً. وكان عمرها لا يتجاوز يومذاك الحادية عشرة أو الثانية عشرة. وجاءتني الصبية، صحبة نمرود، تمشي على استحياء وبكلمات لطيفة تنمّ عن رباطة جأش رحبت بي وكان صوتها عالياً، قالت: إنَّها تحب الإنكليز حباً جماً (كذا). ولم تكن السيِّدة مسدلة على وجهها نقاباً. ثم إنَّها اتخذت مجلسها على كرسي مطعم صغير واحتست القهوة معنا. لكنَّها كانت تؤثر الحلوى المُسمَّاة (بوس إيدك) وكان زوجها قد عُني بإحضارها لها. ولم تمكث معنا من الوقت إلَّا يسيراً إذ سرعان ما تعبت من القيام بدور المضيفة وملَّت حديثنا... وعلمت أخيراً أنَّ رسام هو نسطوري متزمت في الدِّين جداً عمد إلى تدريسها تاريخ الكنيسة السريانية وإنَّها أخذت تصوم مرتين في الأسبوع دواماً بالإضافة إلى صيام الشهر المعتاد عند النصارى..»[1].

ثالثاً: الحياة الثقافية:

اشتهرت الموصل منذ القديم بأنَّها مدينة العلوم والفنون والآداب وخاصة في العلوم الرياضية والفلكية فقد فاقت غيرها من البلدان العربية، فكان الطلاب والعلماء يقصدونها من جميع الأطراف لغاية الدرس والارتشاف من ينابيعها العلمية الزاهرة إذ

(1) انظر بدج ج1 ص297.

كانت تعجّ مدراسها بالعلماء والأطباء والفلكيين والأدباء المشهورين.

وقد شهدت الموصل منذ مطلع القرن الثامن عشر بوادر حركة ثقافية ذات طابع أدبي وكان لظهور الجليليين على المسرح السياسي بداية حقيقية لعهد الرعاية الرسمية للنشاط الثقافي العربي بعد أن ظلّ هذا النشاط محصوراً في إطار ما يُدرس في المساجد من تجويد القرآن وتلقين الحديث، ولكتب تقليدية قد أثقلت بالحواشي والشروح، وتدخل الجليليون في إحياء الثقافة العربية على نحو مؤثر مباشر، فاهتموا بتشجيع حركة الترجمة إلى العربية إلى حدّ أنَّهم كانا يكلفون الأدباء بتعريب الكتب الهامة المؤلفة أصلاً بإحدى لغات العصر التركية والفارسية.

وقد ارتبطت الثقافة بالمستوى الاجتماعي غالباً، فكانت أغلب الأسر التي ساهمت في الحركة الثقافية، تنتمي إلى أُصول أرستقراطية شهيرة مثل آل العمري، وآل الفخري، وآل الغلامي، وآل ياسين أفندي المفتي، كما شجعت المنح الكثيرة والرعاية الخاصة التي كان يقدمها الجليليون عدداً من المثقفين الموصليين على ممارسة الكتابة والتأليف فأدَّى ذلك بطبيعة الحال إلى نمو الحركة العلمية نمواً ملحوظاً[1]، وظهرت بحوث ومؤلفات كثيرة في شتى ميادين العلم والمعرفة كان أهمها في علوم الدِّين واللغة والتاريخ والأدب والطب على الترتيب.

---

(1) يقول المؤرخ العراقي عثمان بن سند (1766 ـ 1834) إنَّ العلماء من قديم الأزل لا يتعلمون وينجحون كمال النجاح إن لم يكن لهم مساعدة في أمر معاشهم من طرف بعض الأمراء، وإلَّا فالفقر انطلق لا ينشأ عنه إلَّا الخمول والجهل عادة (مختصر مطالع السعود ص173).

ففي العلوم القرآنية برز أمين العمري (ت 1788م) فكتب كتابين هامين أولهما: «تيجان التبيان في مشكلات القرآن» والآخر: «حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات القرآن». وحسن باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي عام 1783م قبل توليه الحكم ونهج فيه على أسلوب المعجم المعروف (بترتيب زيبا) وسمَّاه باسمه (ترتيب حسن)[1].

وفي الفقه اشتهر الشيخ عبد الله الربتكي (ت 1746م) ومصطفى أفندي الضرير (1774).

أما في حقل التآليف اللغوية فقد شهدت الموصل في هذا العهد، عدداً من المؤلفين المتخصصين، وكان أبرزهم الشيخ خليل بن علي البصيري (ت 1762م) فنظم أرجوزة في أحوال حروف الجر زاد عدد أبياتها على الثلاثمائة بيت. ونظم صالح أفندي السعدي منظومة في النحو وأُخرى في الصرف ثم شرح الأخيرة[2].

ونشطت حركة التدوين التاريخي ـ في هذه الفترة ـ نشاطاً سريعاً شاملاً، فظهر في هذا الحقل من المعرفة عدد كبير من المؤرخين المثقفين أشهرهم أمين العمري مؤلف كتاب «منهل الأولياء» وياسين العمري مؤلف كتاب «منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء» وغيرهما من المؤرخين[3].

وشارك الشعراء في هذه الحركة فقد نظم كثير منهم القصائد وأراجيز طويلة في وصف بعض الحوادث الهامة في عهدهم، وفي

---

(1) عماد عبد السلام ـ الموصل فترة الحكم المحلي ـ ص380 ـ 384.
(2) المصدر السابق ص384 ـ 387.
(3) نفس المصدر السابق ص387 ـ 394.

خزائن الكتب الموصلية عدد كبير من تلك القصائد والأراجيز لعلَّ من أهمها ما سجل حوادث حصار نادر شاه للموصل عام 1743 مثل أرجوزتي السيِّد خليل البصيري، وأرجوزة حسن عبد الباقي وأرجوزة السيِّد عبد الله الفخري وأرجوزة يونس الموصلي.. وغيرهم[1].

على أنَّ اهتمام الموصليين في هذا العهد لم يقتصر على التأليف في العلوم الأدبية بل تعداها إلى علوم طبيعية بحتة أهمها الطب والفلك والرياضيات.

ففي الطب اتجه الموصليون إلى الترجمة عن المؤلفات اليونانية «الأوروبية» مباشرة، فترجم محمد الجلبي والمتوفى عام 1846 كتباً قيِّمة من اللغة اللاتينية منها «الطب الجديد» لبراكلسوس و«صناعة الطب الكيمائي» تأليف فروليوس. كما ألّف الكتب العديدة في الطب منها كتابه الكبير: (الطب الكبير) و(مفردات الطب الكبير) وغيرهما[2].

وكان ممَّن تخصص في هذا العلم واشتهر فيه الحاج محمد العبدلي (ت 1750م) وشاعت الرغبة في دراسة الطب لدى الأوساط المثقفة في هذا العهد بشكل أثار انتباه بعض الرحالين الأجانب[3]. وكان لوجود الإرسالية الدومنيكية في الموصل دور خاص في تقديم الخدمات الطبية لسكان المدينة وللأسرة الجليلية ذاتها. وأصبحت الموصل مركزاً متقدماً لدراسة هذا العلم

---

(1) نفس المصدر ص394 ـ 395.

(2) نفس المصدر ص395 ـ 400.

(3) رحلة أبي طالب خان ص359.

وممارسته حتى أنَّه كثيراً ما طلب الولاة المجاورين خدمات الأطباء الموصليين، دون سواهم[1].

واستلفتت الظواهر الفلكية والطبيعية انتباه بعض المثقفين، فكتب محمد العبدلي كتاباً في الإسطرلاب أسماه «تذكرة أولي الألباب في استيفاء العمل والإسطرلاب» ثم كتب رسالته في «الثلج والجمد والبرد» وألّف الأديب عبد الله الفخري (ت 1784م) مجموعة من الكتب في علم الفلك منها كتابه «تسريح الإدراك في شرح تشريح الأفلاك» وكتاب «سوانح القريحة في شرح الصحيفة»[2].

وفي علم الحساب ألّف أمين العمري رسالة سمَّاها ذريعة الطلاب إلى معرفة الحساب كما ألّف رسالة أُخرى في نفس الموضوع[3].

فلا عجب إن اشتهرت الموصل بكثرة علماء الفلك والرياضيات فيها فقصدها عبد الله السويدي العالم البغدادي الشهير يوم شرع في دراسة هذه العلوم. وفعل للغرض نفسه أبو الثناء الآلوسي العالم الشهير[4].

يقول الرحالة ميرزا طالب كشهادة عن منزلة الموصل الثقافية في مذكراته[5]: «... وجميع موظفي الدولة وأعيان السكان لما

---

(1) جون فيي ـ الآباء الدومنيكان وخدماتهم الطبية في الموصل ـ مخطوطة في خزانتنا ص2.

(2) عماد عبد السلام ـ فترة الحكم المحلي ـ ص400 ـ 402.

(3) منهل الأولياء ج1 ص6.

(4) عماد عبد السلام ـ الموصل فترة الحكم المحلي ـ ص402 ـ 403.

(5) ميرزا أبو طالب: ولد سنة 1752. زار أوروبا وتركيا والهند، ألف عدَّة كتب ترجم =

رأوا العناية والرعاية اللتين لقيتهما من محمد باشا هرعوا إليَّ يقدِّمون لي احترامهم، وكان هؤلاء أُناساً مثقفين خاصة وذوي أخلاق محبوبة وتفكير واسع. ومنذ مغادرتي باريس لم ألقَ رجالاً ذوي أذهان نيِّرة مثلهم، ووزراء السلطان لو كانوا يملكون عشر براعتهم فقط ما خشيت على ما يستقبله «الباب العالي» من مقادير. . .»[1].

وشهادة أُخرى يدلي بها أحد قناصل فرنسا عن مكانة الموصل الثقافية فيقول: «. . وتؤلف مركزاً ثقافياً بالغ الحيوية. . . بوسع القاهرة فقط أن تزعم مضاهاتها. .»[2] وقد أدلى بشهادته هذه عام 1879م.

غير أنَّه في عام 1882، قنصل آخر يكتب لنا وصفاً موجزاً عن الثقافة بالموصل فيقول: «. . . في عام 1882 كان للرهبان الفرنسيين عدَّة منشآت في الموصل، فهناك مدرسة الكليريكية للاكليروس الكلدان ويبلغ عدد طلابها 29 طالباً. وهناك مدرسة للطلاب البرانيين ويبلغ عدد طلابها 140 طالباً، 110 منهم من الطلاب الكاثوليك و7 من الطلاب المسلمين. وهناك دار للعجزة ومطبعة عربية. .»[3].

ويضيف إلى قوله: «أما بالنسبة للبنات فهناك الأخوات راهبات التقدمة اللواتي كن يقمن بإدارة مدرسة داخلية لرعاية البنات

= قسم منها إلى الإنكليزية والفرنسية. وفد إلى العراق وزار الموصل وبغداد والنجف وكربلاء. وتوفي سنة 1806م.

(1) رحلة ميرزا أبو طالب ص359.

(2) دي فوصيل ـ الحياة في العراق قبل قرن ـ ص45.

(3) المصدر السابق ص145.

اليتيمات وعددهن 12 طالبة. كما كن يدرن مدرسة برَّانية يبلغ طلابها 234 طالباً 181 منهم من الكاثوليك و30 منهم من المسلمين..»[1].

وكانت المدارس الدينية تمثّل سمة بارزة من سمات هذه الفترة، فقد شهدت الموصل منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر، اهتماماً بتشييد المدارس وتزويدها بما تحتاج إليه من الكتب والمال[2]. وكان من أهم المنشآت الثقافية خلال هذه الفترة مدرسة الحاج محمود علي النومة المشيدة عام 1708، ومدرسة محمد آغا السعرتي المشيدة عام 1715، ومدرسة ياسين أفندي المفتي (ت 1722).

بيد أنَّ هيمنة القوى المحلية على أُمور الولاية الداخلية، وتولي آل الجليلي مقاليد الحكم وما أدَّى إليه ذلك من مشاركة مثقفي الموصل وأبناء الأسر المعروفة في شؤون الإدارة قد زاد ـ بطبيعة الحال ـ من الإسراع بإنشاء المدارس والمؤسسات الثقافية الأُخرى. مثل دور القرآن والحديث باعتبارها وسيلة لتخريج طبقة مثقفة واعية تستطيع النهوض بأعباء المناصب الحكومية والشرعية في الولاية[3].

وقد اهتم الجليليون بهذه الناحية بشكل خاص فأولوها عنايتهم ورعايتهم. حتى زاد عدد المدارس التي شيّدتها الأسرة الجليلية وحدها على مجموع عدد المدارس التي أنشأها محبو العلم في الموصل طيلة فترة حكمهم وكان اهتمام الجليليين بهذا المرفق

(1) ذات المصدر السابق ص145 ـ 146.

(2) عماد عبد السلام ـ الموصل في العهد العثماني ـ ص415 ـ 422.

(3) المصدر السابق ص416.

الحضاري سابقاً لتوليهم السلطة ذاتها. ففي عام 1702: «.. شيد خليل آغا بن عبد الجليل مدرسة في فناء جامع الأغوات، وكان قد تعاون هو وإخوته إبراهيم آغا وإسماعيل آغا على إنشائه في نفس العام[1]. وفي عام 1716 بنى إسماعيل آغا (باشا) ابن عبد الجليل مدرسة في فناء جامع النبي جرجيس لتدريس القراءات والعلوم القرآنية.

ثم سرعان ما نشطت هذه الحركة أكثر أثر استقرار السلطة السياسية بيد الجليليين. ففي عام 1755 شهدت الموصل إنشاء إحدى دور العلم الكبيرة فيها عندما بنى محمد أمين باشا الجليلي مدرسة في جامع الباشا الذي شيّده فعرفت بالمدرسة الأمينية نسبة إليه. وفي عام 1778 هدم المدرسة سليمان باشا الجليلي وجدّد عمارتها وأوقف عليها 400 مجلد.

وهكذا راح الجليليون رجالاً ونساءً ينشئون المدارس لتدريس العلوم الدينية والفقهية. فأنشأت رابعة خاتون عام 1766م داراً لتدريس القرآن وأنشأت فردوس خاتون مدرسة عام 1816 وسميت مدرسة الحسنية. وعام 1825 شهد بناء أربع مؤسسات ثقافية كبيرة شاء القدر أن تكون آخر ما بناه الجليليون في مدينتهم حتى انتهاء حكمهم، وأهم تلك المنشآت المدرسة التي بناها يحيى باشا ودار القرآن التي ألحقها بها وتضم زهاء 400 مجلد من نفائس المخطوطات[2].

وساهمت أسر موصلية أُخرى في حركة تشييد المدارس ووقف الكتب ففي عام 1786 أنشأ الحاج زكريا التاجر مدرسة وأوقف

(1) ذات المصدر السابق ملحق رقم 3 ص503 ـ 505.

(2) مدارس الموصل ـ سومر ج10 ص92.

عليها مائتي مجلد من الكتب. وفي نفس العام قام أحمد أفندي ابن بكر ببناء مدرسة وألحق بها مكتبة حافلة وغيرهما من المدارس مثل مدرسة جامع التوكندي، ومدرسة الخزندار وغيرها[1].

أما مناهج الدراسة في هذه المدارس فكانت تقوم على أساس ما عُرف بالعلوم النقلية والعقلية وتشمل الأولى علوم القراءات والتفسير والحديث وأُصول الفقه والعقائد والكلام واللغة والنحو والبيان، في حين تشمل الأُخرى: علوم المنطق والحكمة والفلك والأزياج والهندسة والحساب والطب والموسيقى[2]..

وجنباً إلى جنب مع الثقافة الإسلامية كانت هناك الثقافة المسيحية تجد لها من الكنائس والأديرة الكثيرة داخل الموصل وفي أطرافها خير مرتكز لنشاطها المتزايد، وكان المدرِّسون غالباً من الرهبان والقسس والشمامسة الذين كانوا على درجة جيدة من الثقافة بحكم دراستهم الطويلة ومعرفتهم بأكثر من لغة. وقد رأينا في ما سبق من كلامنا إقبال المسيحيين إلى المدارس وعددهم الكبير بالنسبة للطوائف الأُخرى..

وكان لجهود البعثات التبشيرية الفرنسية في نشر الكثلكة في الشرق وأثرها في إحداث مدّ ثقافي بين نصارى المنطقة. وكانت أهم تلك البعثات إرسالية الآباء الدومنيكان التي جاءت الموصل عام 1750م، فقد استطاعت هذه الجماعة أن تجد لها في الموصل مستقراً ثابتاً يتمتع ـ في الغالب ـ بعطف الولاة وكبار

---

(1) عن هذه المدارس بالتفصيل انظر: نيقولا سيوفي: مجموع الكتابات المحررة. داود الجلبي ـ مخطوطات الموصل ـ. الديوه جي ـ مدارس الموصل في العهد العثماني ـ.

(2) عبد الرزاق الهلالي ـ تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ـ ص96 ـ 100.

موظفي الولاية بما كانوا يقدمونه من خدمات طبية. وكان أول عمل لهؤلاء المبشرين هو فتح مدرسة في المدينة لتدريس العلوم واللغة الفرنسية كان لها دور هام في تخريج طبقة مثقفة من رجال الدِّين المسيحيين.

ولم يجد بعض المسيحيين الطموحين حرجاً من الدراسة في المدارس الإسلامية وخاصة أولئك الذين لم يجدوا في التعليم الكنسي ما ينشدونه من معرفة متنوعة. وقد ذكر أحد النصارى المعاصرين: «.. إنَّ النصارى في كل الشرق ما كان لهم مدرسة بالعربي لتعليم ذلك اللِّسان..» وأشار إلى أنَّ دراسته لعلوم المنطق و«الايساغوجي» كانت في مدارس المسلمين[1].

رابعاً: الحياة الاقتصادية:

1 ـ الزراعة:

اشتهرت الموصل منذ القديم بالزراعة، فهي تقع وسط منطقة زراعية واسعة شديدة الخصوبة، تمتد ما بين دجلة والزاب الأعلى، وبين هذا النهر والزاب الأسفل، وتضم سهل الموصل الممتد على طرفي نهر دجلة، بين جبل الشيخان وجبل سنجار والمنطقة المحصورة بين الزابين، وهي تعتمد في زراعتها على الأمطار وتزرع أغلب الغلال على مدار السنة لذا فقد اشتهرت الموصل بثرواتها الزراعية، حتى عُدت في العصر العباسي مخزناً كبيراً للغلال تزود بغداد بالميرة عدَّة أشهر من كل سنة، وتنتج من الفواكه ما يزيد على حاجة أهلها.

---

(1) عماد عبد السلام ـ الموصل في العهد العثماني ـ ص423 ـ 424.

يقول الأب لانزا: «. . . ولا يتعجبن أحد من كثرة الحبوب في الموصل، فإنَّ الأراضي وإن كانت قليلة الاستعمال للزراعة، خاصة الواقعة منها إلى جهة الصحراء وهي التي لا يتمكن الأهلون من زرعها أبداً خوفاً من غزوات الأعراب، فاقتصرت حراثتهم على الأراضي المجاورة للبلدة، إلّا أنَّ الأراضي الممتدة على ضفة النهر كانت تحرث كلها ومعها أيضاً القرى المديدة القائمة على الضفة الأُخرى، وهي أراض خصبة جداً يفوق التصور، لذلك فغلتها تكفي لا بل تفيض عن حاجة الولاية وربَّما تكفي لسدّ حاجة الولايات المجاورة لكن بين آن وآخر تغزوها أسراب الجراد بكثرة ولا تترك معها شيئاً من الحنطة وتلتهمها كلها إذا كانت طرية، أما إذا كانت بالغة أوانها فالضرر اللاحق يكون أخف وقعاً. . .»[1].

ويضيف إلى قوله: «. . . إنَّ المواد الغذائية الضرورية في هذه الولاية أرخص قيمة من سائر الولايات عادة وخاصة الخبز والعنب والخوخ والقطن وما أشبه. وهي زهيدة الثمن نظراً إلى الكميات الكثيرة التي ترد إليها من كردسان. أما بقية الأثمار فهي قليلة لأنَّها ترد إليها من أماكن بعيدة بكميات محدودة هذا ما عدا الشمزي والبطيخ وغيرها من ثمار الأرض التي تتوفر في البلاد. . .»[2].

ويؤكد فنشنسو[3] كلام لانزا في حديثه عن المواد الغذائية فيقول: «. . . لقد استمتعنا كثيراً بأكل البطيخ وخاصة الرقي ولم

---

(1) مذكرات لانزا ص12.

(2) المصدر السابق ص13.

(3) الأب فنشنسو، انخراط في الرهبنة الكرملية أرسل إلى الهند مع وفد سنة 1656م ولما عاد إلى إيطاليا ترأس دير الكرمليين في لومبارديا. توفي في 5 ت2 1679.

أشاهد في حياتي نظير الرقي الموصلي فهو كبير الحجم جداً يبلغ قطر بعضه أكثر من ذراع...»[1].

كما لفت إنتاج الموصل الغزير للحبوب انتباه كثير من الرَّحالة الذين زاروا الموصل، فقد لاحظ بادجر إنتاج الولاية الأساس هو الحنطة والشعير، وأنَّ إنتاجها على أيامه (أي منتصف القرن التاسع عشر) كان بكميات وفيرة جداً فيقول: «... والإنتاج الزراعي الرئيس هو الحنطة والشعير المتوفران بكثرة إلَّا أنَّهما لا يكادان يفيان نفقة حراثتهما، فكل 100 مثقال حنطة يباع اليوم (سنة 1850) بـ 8 فلوس، والشعير بـ 5 فلوس...»[2].

وكان تصدير الحبوب إلى المنطقة الجبلية المجاورة، وإلى العراق الجنوبي وبخاصة ولاية بغداد من الأُمور الجارية على الدوام، حتى أنَّ انقطاع الحصاد التام من الولاية المذكورة رغم مساحتها الواسعة على ما لاحظ المستر جروفز سنة 1831 ـ لا يترتب عليه مصاعب كبيرة «لأنَّه كان بالإمكان ورود الحبوب بسهولة من الموصل...»[3].

وإلى جانب إنتاج الحبوب، كانت ولاية الموصل تنتج القطن الذي يستخدم في صناعات النسيج الكثيرة التي اشتهرت بها المنطقة منذ عهود قديمة. وكان يزرع عادة في القرى التي تتوفر فيها مصادر دائمة للمياه، إلَّا أنَّ إنتاجه لم يكن يكفي حاجة

---

(1) انظر رحلة فنشنسو ـ ترجمة الأب بطرس حداد ـ مجلة مجمع اللغة السريانية ـ مجلد 1ـ سنة 1975، ص179 ـ 303.
(2) رحلة بادجر مجلة بين النهرين عدد 109 سنة 1975.
(3) جروفز ـ رحلة إلى بغداد ـ ص96.

السوق المحلية، فكان التجار يستوردونه أيضاً في المناطق الجبلية المجاورة[1].

وكانت الموصل تنتج ـ خلال الصيف ـ أنواعاً مختلفة من الخضروات والفاكهة كالبطيخ والخيار وغيرهما. ويزرع أغلبها على شواطىء دجلة والجزر التي تظهر في النهر عند انخفاض مستوى الماء فيه.

أوليڤييه الذي زار الموصل عام 1791، يصف لنا بساتين الموصل بقوله: «. . . تعطي بساتين الموصل الليمون الحلو والنارنج والفستق والتين والرمان والخوخ والمشمش والإجاص وثماراً أخرى من ثمار أوروبا. والأراضي المحيطة بها تنتج الحبوب والقطن بكثرة ويُربى فيها كثيراً من القطعان. ويكاد لا يعرف عندهم شجر التوت غير أنَّ عنبهم فاخر. . ويعمل الموصليون من الزبيب الشربت، ويعمل المسيحيون منه بالتخمير والاستقطار عرقاً فاخراً»[2].

2 ـ الصناعة:

كان للاستقرار النسبي الذي شهدته ولاية الموصل منذ أواخر القرن السادس عشر أثره الواضح في إذكاء حركة صناعية ما انطفأت جذوتها قط إذ لم تستطع الفوضى التي أعقبت الفتح المغولي أن تقضي على رواسب الصناعات المختلفة ممَّا اشتهرت به المدينة خلال العصور العباسية وخاصة في العهد التركي،

---

(1) مذكرات لانزا ص16.

(2) رحلة أوليفييه ص8 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

كصناعة الأنسجة بأنواعها: الحريرية والقطنية والصوفية وصناعة التحف المعدنية[1].

على أنَّ الاستقرار السياسي وحده ليس بكافٍ لإحراز تقدُّم صناعي سريع، ما لم يصاحبه نشاط تجاري يكفي لتبادل الخبرة الفنية بين مراكز الصناعات ويتيح الفرصة لإيجاد أسواق كافية لتصدير المنتجات بما يخلق نوعاً من الاقتصاد المركب.

ولمَّا كانت صناعة الأنسجة تُعدّ من أهم الصناعات الموصلية وأكثرها حيوية، بالنسبة للتبادل التجاري، ويذكر لانزا أنَّ نسيج القطن كان يمثل ـ على أيامه ـ مهنة عامة الناس فيقول: «... فيهتم الرجل بنسجه أشكالاً مختلفة، وآخرون بتقصيره، وغيرهم بصبغه أو رسمه بصور شتى وغيرهم بنقله وبيعه، وهكذا فالجميع تقريباً يشتغلون به...»[2].

وكان طبيعياً أن يؤدِّي تركز النشاط الحرفي وتقدُّم الصناعة اليدوية في مدينة الموصل وازدياد طلب التجار لها، إلى محاولة خلق ظروف جديدة للعمل، والخروج من نطاق الحرفة المنزلية إلى مجال العمل الجماعي الأكثر رقياً، وذلك لتحقيق إنتاج أكثر وأسرع يفي بمطالب التجارة الواسعة فكان من نتيجة هذا أن نشأت مصانع بسيطة الإنتاج لمختلف السلع، وخاصة الأنسجة بأنواعها.

ولاحظ الرَّحالة البريطاني جاكسون عام 1767 أنَّ سكان الموصل أكثر اهتماماً بالصناعة من أي قوم أخر رآهم منذ مغادرته الهند، ويقول: «... هناك عدَّة مصانع يجري تشغيلها وبعض

---

(1) سعيد الديوه جي ـ أعلام الصنَّاع المواصلة ـ ص30.

(2) مذكرات لانزا ص16.

مصنوعاتها تتفوق على المصنوعات الأوروبية فسروج الخيول وأحزمتها تظهر جداً أنيقة بوجه خاص، وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرِّزونه بالأزهار فيظهر أحسن وأمتن من السجاد الذي نصنعه نحن وهم مبرزون في صنع المطرزات الثمينة المدهشة للرجال والنساء معاً، ولديهم العديد من مصانع النحاس والحديد، وهناك كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه المعادن يتم إرسالها عبر نهر دجلة فهو الجنوب حتى البصرة...»[1].

وكان الرحالة نيبور الذي زار الموصل قبل مجيء جاكسون إليها بسنة واحدة قد أشار إلى وجود «... مصانع كثيرة للنسيج والحياكة والصباغة وصياغة النقوش على المنسوجات والمهنتان الأخيرتان بيد النصارى...»[2].

وأشاد أوليفييه في كتاب رحلته عام 1791 بإنتاج هذه المصانع، وذكر أنَّها منتشرة في المدينة، وأنَّ قيمة منسوجاتها كبيرة، حيث إنَّها تباع في حلب إلى التجار الفرنسيين فتُشحن من هناك إلى مرسيليا. ونوَّه رحالين عديدون بالصناعة الموصلية مثل دوبريه وبكنغهام وباجر.

فبكنغهام يقول: «الصناعة الوحيدة التي تُمارس في الموصل على نطاق ما هي صنع الملابس القطنية التي تُصبغ باللون الأزرق لإكساء الطبقات الفقيرة...»[3].

وأما باجر فيصرّح: «... أما مصنوعات الموصل في أيامنا

(1) جاكسون ـ مشاهدات بريطاني في العراق ـ ص105.

(2) رحلة نيبور ص114.

(3) رحلة بكنغهام ص66.

فهي: الملابس القطنية، والصابون الذي له سوق في القرى المجاورة...»[1].

3 ـ التجارة:

لعب موقع الموصل بين أربعة أقاليم جغرافية متمايزة، هي إقليم الجزيرة وإقليم العراق والمنطقة الجبلية والبادية الصحراوية، دوراً أساسياً في نشاط الموصل الحضاري منذ أقدم عهودها. ولا ريب في أنَّ للتجارة النصيب الأوفى في ذلك النشاط بما تسببه من تأثير متبادل بين مختلف الحضارات، وقد انتبه كثير من الجغرافيين إلى أهمية موقع الموصل على تجارتها، فوصفت قديماً بأنَّها محطّ الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان.

ووصفت في القرن الثامن عشر بنفس الوصف تقريباً على بعد شقة الزمن، فيقول الأب لانزا: «... إنَّها تستفيد من موقعها الجغرافي المتوسط بين الجهات، فتأتيها الأعراب من البادية، والأكراد من الجبال ويبتاعون منها ما يحتاجونه، وللسفر منها إلى إيران يكفي اجتياز الجبال وكذلك إلى بغداد يكون السير منها سهلاً بالبر، وأكثر سهولة منه بالنهر، ومن بغداد فالبصرة فالهند كما يفعل كثير من التجار، والبضائع التي تجيء بها القوافل من إيران والهند إلى المملكة العثمانية تمرُّ بالموصل، كما أنَّه لا بدَّ أن تمرُّ بها البضائع التي تنقل من الأقطار العليا الشمالية إلى الأقطار السفلى الجنوبية...»[2].

---

(1) رحلة بادجر مجلة بين النهرين عدد 9، 10 سنة 1975.
(2) مذكرات لانزا ص17.

ومنذ بداية القرن الثامن عشر أخذت الموصل تجني فوائد موقعها السياسي الجديد فقد أصبحت ـ مرَّة أُخرى ـ نقطة وصل بين شبكة طرق تجارية متعددة الأطراف، وصارت قوافلها تقوم بعملية تبادل ضخمة بين منتجات بلاد متباعدة مختلفة علاوة على قيامها بتصدير ما تنتجه الموصل من مواد زراعية، أو بضائع مصنوعة أو خامات صناعية إلى الأسواق المحلية المجاورة أو إلى المراكز التجارية الأُخرى كحلب وبغداد، ليتولى تجار هذه المراكز ـ بدورهم ـ تصريفها في الأسواق الخارجية.

وتقوم الموصل خلال هذه الشبكة المتشابكة من خطوط المواصلات بعمليات تجارية غير يسيرة فهي تستورد أولاً من حلب وسائر منتجات الشام وكثيراً من السلع الأوروبية الآتية عن طريق البحر المتوسط مثل الحديد والمفارش والعباءات بالنيلة على حدِّ قول دوبريه[1]. والتي تبلغ قيمة ما تستورده منها ما يزيد على ألف قرش، ليستهلك برمّته في صباغة المنتوجات[2] على ما يروي دومنيكو لانزا.

وجاء في تقرير فرنسي مخطوط لمترجم قنصلية فرنسا في بغداد المسيو اشيل مراديان[3] (ت عام 1895) أنَّه كان يرد إلى العراق من البضاعة الفرنسية في أوائل القرن التاسع عشر عن طريق الآستانة وحلب ما تبلغ قيمته ثلاثة ملايين فرنك منها الجوخ والمخمل والقيطان والبقّم (بتشديد القاف) وهو خشب أحمر يُستخدم في الصباغة.

---

(1) رحلة دوبريه ص121.

(2) مذكرات لانزا ص17.

(3) غنيمة ـ تجارة العراق قديماً وحديثاً ـ ص75.

يخبرنا دومنيكو لانزا عن الحركة التجارية بقوله: «. . . توجد في الموصل أنواع البضائع المستوردة إليها من إيران والهند وكوبا والأقطار الأخرى التابعة إلى الأمبراطورية، إلَّا أنَّ تجارة الموصل الخاصة عدا الحبوب هي الأقمشة القطنية ويصدر منها كل سنة مقدار كبير إلى سائر الجهات.

ويمكن القول إنَّ البلد بكامله يستفيد فائدة عظيمة من هذا الصنف التجاري، فإنَّه في القرى التي يكثر فيها الماء يزرع القطن بكثرة لكنَّه لا يكفي للحاجة المحلية، ولذا فكثير من الناس يقصدون بلاد كردستان لتوريده إلى الموصل والقرى فتشتغل عامة النساء بغزله ويهتم الرجال بنسجه أشكالاً مختلفة وآخرون بتقصيره. وغيرهم بصبغه أو رسمه بصور شتى وغيرهم بنقله وبيعه وهكذا فالجميع تقريباً يشتغلون به. . .»[1].

ويضيف إلى قوله: «. . . إنَّ الاتجار بهذه الأنسجة رائج والربح الناتج منها للبلد وفير جداً. وبالدراهم التي يربحها الأهلون من تجارتهم هذه يستوردون من شتى الأقطار المواد التي يحتاجونها لأشغالهم ويتاجرون بها في الولايات المجاورة من كردستان وإيران فيرجعون محملين بما تنتجه تلك الأقطار بأسعار واطئة، ثم يذهبون به إلى حلب وغيرها من البلاد ويبيعونه بأرباح فائضة. . .»[2].

ثم يتكلم عن التبادل التجاري بين الموصليين والتجار الآخرين خارج الولاية فيقول: «. . . إنَّ العفص وهو كثير في جبال كردستان يحمله الموصليون بمقادير كبيرة إلى حلب لبيعه على

---

(1) مذكرات لانزا ص18.

(2) المصدر السابق والصحيفة عينها

التجار الأوروبيين ولابتياع الأجواخ والأقمشة والنيل وغيرها من البضائع الأوروبية بأثمانه، وتستورد كميات من النيل سنوياً من حلب إلى الموصل ما يربو ثمنه على ألف ألف قرش وأعتقد أنَّه يستهلك كله في هذه المدينة لصبغ المنسوجات بأشكال شتى. . . »[1].

إذن كانت التجارة بالبضائع الأوروبية كبيرة فقد قدرت كمية البضائع الأوروبية المستوردة عن طريق حلب والشام إلى العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأكثر من (7500 بالة) تشتمل على الأقمشة القطنية والأقمشة المطبوعة، واليازمات (لباس الرأس للنساء) وسائر المنسوجات القطنية والحريرية والورق (220 بالة) من الورق الأبيض و(300 بالة) من الورق الملون والكتب والكتان وحجر القدح والبنادق وسلفات النحاس والكبريت والمسامير والأسلاك الحديدية والزجاج والمرايا وفناجين القهوة واللآلىء الصناعية. هذا بالإضافة إلى كميات كبيرة أُخرى من مصنوعات حلب والشام مثل غزل القطن والسكر المصفى والنحاس والمرجان وصابون حلب (300 بالة) وصابون الشام (200 بالة). . إلى غير ذلك[2].

وفي الوقت نفسه، كانت الموصل تصدر إلى حلب نسيج الموسلين والأقمشة الحريرية المطرزة والمقصبة بخيوط الذهب والفضة، حيث كانت تُباع هناك إلى تجار الفرنسيين ليشحنوها إلى مرسيليا. وكميات أُخرى كبيرة من (العفص) لبيعه للتجار

---

(1) ذات المصدر السابق وذات الصحيفة أيضاً.

(2) رحلة نيجهولت ترجمة مير بصري (جريدة البلد بتاريخ 5/ 2/ 1967).

الأوروبيين، هذا فضلاً عن السمن والماشية والتمر والطنافس الفارسية والتنباك وغيرها[1].

وترتبط الموصل بالإمارات الكردية المجاورة بعلاقات تجارية وثيقة فكانت تستورد منها العفص بكميات كبيرة والصوف والحرير والقمح والشعير والخشب والحطب والبسط والطنافس والأحرمة وقشر الرمان والصمغ والتبغ والزبيب والفواكه والرخم والجبس والأغنام والماعز وجلودها وصوفها وسمنها، وتصدر إليها البن والشاي والسكر والأقمشة الهندية والأوروبية[2].

وينوّه تافرنييه[3] في أواخر القرن السابع عشر بالعلاقات التجارية بين الموصل والمناطق الكردية المجاورة فيقول: «... وليس لهذه البقعة من شأن إلَّا كونها ملتقى مهماً للتجار، خاصة تجار العرب والأكراد...»[4].

كما يشير نيبور إلى هذه العلاقات فيذكر أنَّ ما يرد إلى الموصل سنوياً أكثر من ألفي قنطار من البندق واللوز والجوز فتقوم هذه بتصديره إلى حلب[5].

وينوّه المقيم البريطاني ريج بما كانت تستورده الموصل من

(1) غنيمة ـ تجارة العراق قديماً وحديثاً ـ ص105.
(2) بادجر ـ النساطرة ـ ص80.
(3) تافرنييه (جان بابتيست) ولد في باريس سنة 1605. رحل إلى أوروبا الغربية وهو صبي يافع وخدم أهم حكَّامها وحارب الترك على حدود بولندا. قصد استانبول مع راهبين ثم انفصل وحده وزار فلسطين وأرضروم فارس والهند ورحلتين أخريين إلى أفريقيا.
زار الموصل مرتين أولاً عام 1644 وثانياً عام 1652. توفي سنة 1689.
(4) رحلة تافرنييه ص58 ـ 59.
(5) رحلة نيبور ص114.

السليمانية على أيامه في سنة 1820م فيقول: «... والمتاجرة مع الموصل مستمرة بعض الاستمرار، وتستورد منها الأحذية والغتر (لباس الرأس) والخام (القماش) والأقمشة القطنية الملونة، ومنتوجات الشام وديار بكر وغير ذلك. أما الصادرات إليها فالعفص وغيره...»[1].

وتُعتبر بغداد مركز النقل الجنوبي للتجارة الموصلية، فهي تصدر إلى الموصل أغلب ما تنتجه محلياً، أو ما تستورده من الخليج العربي ومن إيران مثل التبغ الأصفهاني والفواكه والفضة والجواهر واللؤلؤ وشالات كشمير وكرمان والسكر والشاي والفلفل والبن والصابون والشمع والكبريت والعباءات والأحذية وملابس الأعراب والأدوية والفواكه المجففة والسجاد[2].

وتصدِّر الموصل بدورها إلى بغداد الحنطة والعفص والرصاص والزبيب والحمص والعدس ودهن السمسم والصابون والشحوم وشعر الماعز والنشوق ونبات الزعتر[3].

كما تصدر إليها أيضاً ما تصنعه أنوالها من ملابس قطنية وغيرها على ما أخبرنا دوبريه. ويشير جاكسون إلى أنَّ تجارة هامة جديدة لم تكن معروفة من قبل ازدهرت بسرعة في الفترة التي سبقت رحلته سنة 1767 وهي تصدير النحاس بكميات ضخمة من الموصل إلى بغداد لتشحن من هناك إلى أوروبا حيث إنَّه: «...من نفس النوع الذي يجري صنعه في إنكلترا...»[4].

---

(1) رحلة ريج في العراق عام 1820، ج1، ص217.
(2) رحلة نيجهولت ـ ترجمة مير بصري ـ جريدة البلد 5 شباط 1967.
(3) المصدر السابق الموضع نفسه.
(4) جاكسون ـ مشاهدات بريطاني في العراق ـ ص105.

ولعلَّ خير ما نختم به موضوعنا هو ما أورده الرحالة أوليفييه عن الحركة التجارية في الموصل إذ يقول: «... الموصل إحدى أسواق الشرق الكبرى، معظم الأنسجة والعقاقير والسلع الواردة من الهند إلى البصرة وبغداد تمر من هذه المدينة وتذهب إلى القسطنطينية أو تنتشر في آسيا الصغرى، ومثلها قهوة مخا وبضائع إيران، وهي مستودع للعفص والكشمير وشمع كردستان وقطن الأمصار المجاورة، يصنع فيها سختيان[1] نفيس جداً، وكثير من الأنسجة القطنية للاستعمال المحلي، وقسم منها يمرُّ بحلب مع العفص والكثيراء يباع للتجار الفرنسيين وهؤلاء يرسلونها إلى مرسيليا، وأعطت الموصل اسمها لأنسجة قطنية سُميت موسلين لأنَّ من هذه المدينة وردت أوروبا أول ما وردت، نقلت إليها من الهند بطريق فارس...»[2].

ويضيف إلى قوله هذا: «... البضائع الأوروبية التي تحتاج إليها الموصل تمرُّ من حلب إليها وكذلك عبي منسوجة في سوريا، ويرسل إليها من سوريا ومن ما بين النهرين والأناضول وأرمينية وكردستان النحاس العتيق ومنها يمرُّ على بغداد والبصرة فينقل إلى الهند. ويوجد بكثرة في الموصل نوع من المن يعمل منه أقراص حلواء صغيرة بيض لها طعم ومنظر اللوزينج المحلّى بالسكر أو العسل الجيد الممزوج بحلواء السمسم...».

غير أنَّ أوليفييه أبدع ما يورد في معرض حديثه هذه الشهادة الصادقة عن علاقة التجارة بالإدارة العليا في الولاية، حيث إنَّ

---

(1) سختيان الجلد الرقيق الناعم الفاخر والغالي الثمن والجيد الصنع.

(2) رحلة أوليفييه ص7 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

الحركة التجارية الواسعة كالتي مرَّ بنا وصفها لم تكن أن تنشط أبداً دون حماية من قبل السلطة التي أخذت على عاتقها السيطرة على الأسواق وحماية القوافل من قطاع الطرق. ولقد خلق الجليليون وما يمثلونه من قوى تجارية وضعاً جديداً غريباً من نوعه، فلقد اهتموا بحماية مصالح التجار والتخفيف عنهم حتى تناقل التجار عنهم الكرامات. واشتهر الحاج حسين باشا الجليلي بأنَّه قطع دابر قطاع الطرق واللصوص، كما كان الولاة الجليليون يعمدون عند خروج القوافل الكبيرة إلى إرسال فريق من الجند معها ليتولى حمايتها من اللصوص وقطاع الطرق. وهذه ما يحدِّثنا عنه أوليفييه بقوله:

«. . . سمعنا مراراً كثيرة التجار والأهالي يثنون على الباشا ويحمدون له حسن إدارته معجبين بنزاهته ونزاهة موظفيه وراضين كل الرضا لعنايته بحماية التجارة، فشهدنا نحن وفرة الأرزاق المجلوبة إلى الأسواق وأدهشنا رخصها وجودتها. وكان الباشا لا يتوانى في جعل كل التجار يقصدون مدينته بحاصلات أراضيهم ومصانعهم وكان يمنع أن يصيبهم عسف من أحد أو يمسهم ظلم، وخفض رسوم الوارد عن المأكولات وهو يسهر على إجراء تسهيلات للتجار من قبل موظفي الگمرگ وعلى ألا يتجاوز الرسوم المقررة. . .».

ويضيف إلى قوله هذا تعليقاً جديراً بأن نذكره: «. . . هذا السلوك المعقول بقدر ما هو سياسي أنتج للباشا كل الأثر الذي كان ينتظره، فإنَّ الموصل التي كانت قبلاً عرضة للقلاقل والفتن والحروب الداخلية. . . رأت فجأة القلاقل هذه تنقطع وأنَّ النظام يستتب فيها. . . حيث كان حرس الباشا مشتغل بالمحافظة على

النظام وحماية الضعفاء وضبط المتنفذين أكثر من إظهار فخفخة للسلطة لا تحتاج إليها...».

ثم يردف قائلاً: «... لما رأى التجار والبائعون الشارون أنفسهم محميين أتوا إلى الموصل جماعات، وصاروا يتعاطون أعمالهم التجارية بحرية وكثرت القوافل لأنَّ البلدة صارت تستهلك أكثر وأصبحت يمكن وصفها بمخزن كبير واتسعت الصناعات منذ ذلك الحين وتضاعفت حاصلات الزراعة وازداد عدد الأهلين كثيراً ورأى الشعب الرفاه فذاق الحياة الخالية من التحريض والاضطراب...»[1].

خامساً: الحالة العمرانية:

كان سقوط الموصل بأيدي المغول في القرن الثالث عشر بداية التدهور العمراني المستمر الذي حلَّ بالمدينة. وفي القرون التالية أخذت المدينة تنكمش تدريجياً إلى داخل أسوارها القديمة، وتضافرت النكبات الطبيعية والبشرية على تدهور المدينة وانحطاطها، وفي بداية العصر العثماني كان نصف البلدة تقريباً قد أصبح خرائب خالية من السكان.

يخبرنا راوولف الذي زار الموصل عام 1596م قائلاً: «...وعبرنا جسراً من القوارب، وهي تابعة للأمبراطورية العثمانية... شأنها شأن البلدان التي يجاورها.. وفيها بنايات حسنة وشوارع، وهي على جانب من السعة لكن أسوارها وخنادقها واهنة الشأن..»[2].

---

(1) المصدر السابق ص8 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

(2) رحلة راوولف ـ انظر سير وليس بدج ـ رحلات في العراق ـ ج1، ص278.

أما تافرنييه الذي زار الموصل سنة 1644 فيقول: « . . . والموصل مدينة تبدو للمرء من خارجها فخمة المنظر، أسوارها حجرية، بينما في داخلها تكاد تكون برمّتها خربة، وليس فيها سوى سوقين معقودين، وقلعة صغيرة مطلة على دجلة يقيم فيها الباشا . . . وليس لهذه البقعة من شأن إلّا كونها ملتقى مهماً للتجر، خاصة تجار العرب والكرد، وليس في الموصل غير خانين حقيرين، كانوا مكتظين بالمسافرين حين وصولنا إليها، فطلبت أن تنصب خيمتي في الميدان، أي في السوق الكبير. . . »[1].

وفنشنسو الذي قدم الموصل عام 1656 فيحدثنا في مذكراته: « . . . فبيوتها بسيطة مشيدة بالطين، وهي أشبه ما تكون بيوت رعاة من أن تكون مساكن أُناس متحضرين ومركز ولاية، وليس فيها ما يلفت النظر سوى قلعتها حيث يوجد عدد كبير من العسكر الانكشاري. ويحيط القلعة سور فيه مزاغل للدفاع ضد الهجمات على عادة الأقدمين. . . أما مواد البناء فهي الجص والحجر الرخو. وهذا النوع من البناء لا يقاوم عوادي الزمن. . . ولهذا رأينا بعض أقسام القلعة مائلة للسقوط ومتهدمة. . . »[2].

ويضيف قوله: « . . . ومدينة الموصل الحالية صغيرة، ضيقة المسالك فقيرة المنازل . . وقد مررت أكثر من مرة بأسواق المدينة فأخذني العجب من الأسعار البخسة التي تُطلب لمختلف البضائع، وقد اشتريت أشياء كثيرة. . . فالشاة الواحدة تباع بأربع شاهات التي تعادل أربع قطع يولية رومانية. . . وقد أعطونا حملاً كبيراً من الفواكه بدرهم واحد أي بأقجة واحدة لا غير. . . أما أبقار

(1) رحلة تافرنييه ص58 ـ 59.

(2) رحلة فنشنسو مجلة مجمع اللغة السريانية، ج1 ص194 ـ 198.

الموصل فهي من جنس جيد جداً ولا يزيد سعر البقرة الواحدة عن قطعتين أبو شلبي وتساوي القطعة الواحدة من أبو شلبي Talero واحد لا غير. أما الخيول فحدِّث عنها ولا حرج فهي من مختلف الأجناس فهناك الخيول الفارسية والتركية والخيول العربية الأصيلة. لقد رأيت أعداداً كبيرة جيدة تُباع بأربعة قروش أو خمسة. أما الحصان الذي تصل قيمته إلى اثني عشر قرشاً أو خمسة عشر قرشاً، فهذا يباع في أوروبا بخمسين دينار أو ستين على أقل تقدير. . . »[1].

هكذا كانت حالة الموصل في القرن السابع عشر، غير أنَّه مع بداية القرن الثامن عشر شهدت بداية حركة عمرانية محدودة شملت تشييد بعض المؤسسات الدينية والثقافية وبعض المنشآت العامة، فجرت أول محاولة ـ بإيعاز الوالي ومساهمة سراة البلدة لبناء قناطر جسر المدينة العائم. وعمرت بعض المساجد القديمة. وأنشأ بعض السراة عدة منشآت دينية وثقافية جديدة. وبلغت هذه الحركة العمرانية ذروتها عند استلام الجليليين السلطة فشيدوا عدداً ضخماً من المساجد الكبيرة والمدارس والأسواق والقصور وعمروا الأسوار والقلاع، وساهم كثير من أصحاب النفوذ والوجهاء في هذه الحركة فكثرت المؤسسات الدينية والثقافية خلال هذا العهد بسرعة كبيرة. واستمر الحال هكذا حتى أوائل القرن التاسع عشر حيث انتكست الموصل ثانية.

يقول جون آشر مؤكداً لكلامنا السابق: « . . . واسطة الاتصال بين جانبيها الجسر من القوارب البالي الضيق المزدحم بالعابرين ولا سيَّما قبل الظهر. . . وكان فيها جسر حجري مناسب لكنَّه

---

(1) المصدر السابق ذات المجلة والصفحات.

أهمل شأنه فتهدم ولم تبذل أية محاولة لإعادة بنائه من قبل الأتراك. . . »[1].

الأسوار والحصون:

استقرت الموصل في القرن الثامن عشر بين أسوارها القديمة، وكانت هذه الأسوار مبنية على أنقاض الأسوار الأتابكية، وكانت تحيط بالبلدة من كل جهاتها، تتخلله عدة أبواب[2] ويزيد من مناعة هذا السور وجود قلعتين فيه، الأولى في أعلى المدينة تطل على دجلة، والأخرى القلعة الداخلية التي تهدمت معظم مبانيها، وقد وصفها الرحالة هول Howel عام 1788 وأشار إلى أنَّ رداءة مواد بنائها جعلها غير قادرة لأن تكون حصناً قوياً.

يحدِّثنا تيفنو[3] الذي زار الموصل عام 1644م عن السور والقلعة بقوله: «. . . يحيط بها سور مشيد بحجارة مثبتة بالجص. وتعلوه حجارة مدبّبة متجهة إلى الأعلى، يبلغ سمكها نحو إصبعين وعرضها أربعة أصابع أو خمسة فهي أشبه ما تكون بالأوتاد الخشبية».

ويضيف أيضاً: «. . . يوجد قرب النهر قلعة عالية تمتد مع

---

(1) رحلة جون آشر ص192.

(2) يقول بدج: «وكانت للمدينة تسعة أبواب هي: باب عين كبريت، وباب الشط، وباب القلعة، وباب الجسر، وباب الطوب، وباب السراي، وباب الضيق، وباب البيض، وباب سنجار. (انظر عن أبواب الموصل وسورها: كتاب الموصل في العهد العثماني للأستاذ عماد عبد السلام رؤوف، ومقالة الأستاذ سعيد الديوه جي).

(3) تيفنو (جان دي) ولد في باريس سنة 1633. تجول في الأقطار المجاورة لوطنه أولاً ثم عاد إلى فرنسا وبعده سافر إلى تركيا والشرق الأوسط وانطلق إلى فلسطين ومصر وإيران والهند. وافاه الأجل في أرمينيا سنة 1677.

النهر. أما شكلها فيكاد يكون بيضوياً، يمتد مع النهر، وقد بنيت الواجهة المطلة على النهر بحجارة منحوتة ويرتفع السور المحدق بها حوالي ست أمتار. أما من جهة اليابسة فهي منفصلة عن المدينة بخندق عميق جداً عرضه عشرة أمتار أو أكثر... وللقلعة مدخل من جهة اليابسة والبوابة في وسط برج جسيم مربع الشكل مشيد فوق قنطرة كبيرة يجري من تحتها ماء الخندق. وهناك جسر متنقل لا بدَّ من عبوره للوصول إلى البوابة. وقد كان البرج فيما مضى مزوداً بمدفعية. وقد قيل لي إنَّ هذه القلعة كانت قد بُنيت من قبل المسيحيين. وإنَّ فيها كنيسة جميلة...»[1].

وأوتر الذي قدم عام 1736 يقول: «... فيها سورين قديمين وكبيرين ويقوم اليوم أحد الأسوار وكله حفر وأنقاض على شاطىء النهر...»[2].

ونيبور الذي زار الموصل عام 1766 فيقول: «... ويربط نينوى بالموصل جسر يطفو على عشرين عوامة، فإذا سقط المطر بشدَّة أو ذاب الثلج فإنَّ مستوى ماء النهر يرتفع وتياره يشتد بحيث يقطع اتصال الجسر... وقد حدث ذلك في اليوم 23 آذار فقد جرف التيار الجسر...».

ويضيف إلى قوله: «... والموصل كأية مدينة كبيرة في هذه البلاد فنحو نصفها الواقع على الطريق البري مُحاط بسور قديم قوي وضخم، ولا يزال قسم كبير من السور الواقع على ضفة النهر قائماً، وللقسم الجنوب الشرقي من المدينة، سور متقطع له أبراج ولكنَّه غير قديم، وفي مواضع كثيرة منه تلتصق البيوت مع بعضها

(1) رحلة تيفنو مجلة بين النهرين عدد 8 سنة 1974.

(2) رحلة أوتر ص243.

البعض فتشكل قسماً من السور. والقسم الأكبر من المدينة مهدّم تغطيه الأنقاض. . .».

ويصف كذلك القلعة الداخلية، بقوله: «وهذه القلعة على جزيرة صغيرة مستطيلة الشكل في نهر دجلة وتتخذ الآن مستودعاً للذخيرة والعتاد»[1].

غير أنَّ أوليڤييه الذي زار الموصل عام 1791 فيتكلم عن السور بقوله: «. . . سورها يشابه أسوار المدن التركية أو العربية. مرتفع وله بروج عديدة. محاط بخندق عميق نوعاً ما. . . وكان السور يمتد قبلاً مع دجلة، لكن الآن لا يرى له إلَّا بقايا فلم يعمل على إدامته وإصلاحه. . .».

وسرعان ما أهمل أمر السور وتحصيناته، فامتلأ الخندق بالأتربة، وتهدم السور، حتى غدا ـ كما رأى بكنغهام ـ حاجزاً لا أهمية له أمام جيش مزوّد بالمدفعية.

ويؤكد ويكرام هذا بقوله: «. . . ويحيط بها من سائر جهاتها سور وخندق. . . وربَّما كان السور الحالي مقاماً على سور أثري عتيق، إلَّا أنَّ عمر السور القائم لا يزيد عن مائة عام. وقد أسرع إليه الخراب وتكسرت أجزاؤه لسوء بنائه وساعد في خرابه استخدام الحكومة والأهالي حجارة أنقاضه للبناء. . .»[2].

---

(1) المصدر السابق ص244.

(2) ويكرام ـ مهد البشرية ـ ص71. وقد نهض الوالي أحمد باشا الجليلي بتعمير السور تعميراً شاملاً عام 1821، فعمره وجدد بعض الأبواب وأصلح قلعة باشطابيا. وجدد القلعة الداخلية وعمر ما كان قد انهدم منها، وأحكم سورها وجدد أبوابها، وعمر الخندق الذي كان يفصلها عن المدينة وجدد مسجدها وكان هذا آخر ترميم للأسوار قام بها الولاة الجليليون حتى انتهاء حكمهم.

ويعود بكنغهام ليقصّ لنا حالة القلعة الماثلة للخراب وكان قد رآها سنة 1816 فيقول: «. . . وتتألف تحصينات المدينة التي تمتد خارجاً، من سور مغلق ليست فيه مدافع، أما من ناحية النهر فتقوم إحدى القلاع بالدفاع عن المدينة، وهذه القلعة صغيرة مخربة تقع على جزيرة اصطناعية نشأت عن امتداد نهر دجلة من الضفاف التي تقع عليها القلعة إلى الخندق العميق الذي يحيط بها وهي تقع على مقربة من جسر القوارب الذي يعبر به النهر. والبناية مثلثة الزوايا وقد شُيِّدت على مقربة من القلعة بضعة مدافع من البرونز ألقيت هناك مهملة غير صالحة للاستعمال. . .»[1].

الدور والقصور:

قدر عدد بيوت الموصل في القرن الثامن عشر ما بين العشرين ألف بيت والأربعة والعشرين ألف بيت على حد تقدير نيبور[2]. أما المنشي البغدادي قدّر عدد البيوت في القرن التاسع عشر بثلاثين ألف بيت أو أكثر[3].

وتخترق الموصل في هذا العهد، شبكة من الأزقة والطرق. وقد وصفها أكثر من رحالة بأنَّها كانت: «مستقيمة

---

(1) رحلة بكنغهام ص65. ويضيف إلى قوله: «وقد لاحظت على أحد هذه المدافع شعارين أوروبيين أحدهما صورة صليب تحتل الماسورة كلها، أما الآخر فكان مربعاً رسم صليب على القسم الأعلى من يساره وعلى الجزء الواطىء الأيمن منه ورسمت على مدفعين آخرين صورة ذراع ممتدة بيد مفتوحة ووشاح مطرز فوق الرسغ. أما التاريخ المدون على المدفع فهو السنة 1526م ولم أعرف الوسيلة التي وصل بها إلى هذا المكان.

(2) رحلة نيبور ص107 رحلة هود ص218.

(3) رحلة المنشي البغدادي ص79.

جافة في الصيف وموحلة في الشتاء، على حدٍّ قول دوبريه وسيستيني[1].

ويقول نيبور: «... وشوارع الموصل وأزقتها ضيقة وغير منتظمة... ولجميع الشوارع مداخل في نهاياتها. ومعظم هذه الشوارع والطرقات معبَّدة...»[2].

أما جمس بكنغهام فيشير: «... فالشوارع ضيقة غير معبدة وأستقامتها ليست منتظمة...»[3].

ويرجع جون آشر فيخبرنا: «... أما الشوارع والأزقة فهي أنظف وأحسن ممَّا توصف به من الخارج عادة، لأنَّها كانت على شيء من الاتساع ومبلطة أحياناً من دون أن تكثر فيها الأوساخ...»[4].

أما بدج فيقول: «... شوارع الموصل ضيقة وتبليطها رديء... والبيوت مبنية في الأحيان بالرخام الرمادي... ويستخدم في صنع الإسكفات وعمد الأبواب وتبليط أفنية الدور...»[5].

وتميَّزت دور البلدة، عهد الجليليين ـ القرن الثامن عشر ـ وحتى التاسع عشر، بأنَّها كانت ذات طراز واحد تقريباً[6].

يقول نيبور: «... والبيوت مبنية بالجص والحجر وأكثرها

(1) رحلة دوبريه ص148. رحلة سيستيني ص147.
(2) رحلة نيبور ص107.
(3) رحلة بكنغهام ص60.
(4) رحلة جون آشر ص194.
(5) رحلة برج ج1، ص288.
(6) رحلة نيبور ص108.

مقببة. . . »[1] وإنَّ بعض دور سراتها كانت على النسق الذي عرف في ديار بكر. وكانت المادة التي تُستعمل في بناء المنشآت في المدينة تتكون عادة من الصخر والطابوق (الطوب المشوي) والجص، وقد استخدم الرخام الذي يجلب من أطراف المدينة والجبال القريبة بوفرة في زخرفة المداخل. وفي صناعة الأعمدة الرخامية، داخل الدور وفي رصف الحجرات وصنع المحاريب. أما الجدران الخارجية فكانت تُبنى بالآجر الأحمر.

يخبرنا أوليفييه بأنَّ: «. . . بعض الدور مبني بالحجارة، لكن أكثرها من طين. على أنَّ الحيطان مكسوّة بطبقة من الجص، يتخذون للأبواب وتبليط الدور نوعاً من الجبس يشبه لأول وهلة الرخام الرمادي والأبيض، يظهر أنَّ استعماله قديم جداً لأنَّا وجدناه يُستخرج بكثرة من الأنقاض التي قلنا إنَّها في جنوب المدينة فالقطع الكبيرة كانت تنحت وتصقل ثانية والبقية يصنع منها الجص. . . ».

ويضيف إلى قوله هذا: «. . . بناء البلدة رديء نوعاً ما، والأزقة ضيقة غير منتظمة، المبلط منها قليل جداً بحيث تمشي الناس ستة أشهر في الوحل وستة أشهر في الغبار. لكل دار سطح أو سطوح في وضع لا يمكن الجار رؤية ما يجري عليها، تصعد إليها النساء في ليالي الصيف لاستنشاق الهواء. . . »[2].

أما جمس بكنغهام فيورد وصفه بما يلي: «. . . ونظراً لندرة الأخشاب. . . فإنَّ معظم هذه الأبنية لها بدلاً من السقوف الخشبية، سقوف معقودة تقوم فوقها غرف وسطوح معقودة تسند

---

(1) رحلة نيبور ص108.

(2) رحلة أوليفييه ص5 حسب المخطوطة التي في خزانتنا.

شرفاتها المنبسطة، ومداخل هذه المنازل والشبابيك التي تنفتح على الباحات الداخلية، متوجة بطاق من المرمر المجزع... وهو مشيّد على الطراز الغوطي المدبب، أو النورماندي المستقيم، أو الأقواس العربية... وتُحلّى قطع المرمر في بعض الحالات برسوم أزهار منحوتة وهي متقنة الصنع غالباً... ومن بين الزخارف التي شاهدتها على أركان المداخل وسجفها التي تتكرر كثيراً أحد الأعمدة المحلاة بما يشبه رأس الكبش، ونقوش أُخرى من مثلثين منطبقين على بعضهما بالتخالف ونجمة في الوسط.

ويضيف إلى حديثه كلاماً وصفياً ثانياً عن المنازل العامة فيقول: «... وهناك بعض المنازل البسيطة التي يقطنها النساجون يكون نصفها تحت الأرض، والجزء الأسفل منها مغلق أثناء النهار حيث تقوم فيها المناسج، بينما يرقدون على سطوحها أثناء اللَّيل والكثير من هذه السطوح مسورة بجدران تحجب الذين ينامون فيها من تعرضهم للأنظار ولهذه المنازل منافذ مصنوعة من أسطوانات فخارية مجوفة وفيها مزاغل لتثبيت البنادق في الجدران استعداداً لأسباب الدفاع...»[1].

والأب دومنيكو لانزا الذي سكن الموصل فترة من الأعوام طويلة يصف لنا بيوت المدينة وصفاً دقيقاً فيقول: «... دور المدينة جيدة وقوية، مبنية بالأحجار والطابوق والجص، وهي مريحة وكلها عن طراز واحد تقريباً وإنَّ هندستها المألوفة هي على الصورة التالية: كل دار لها في الوسط منطقة مفتوحة من جهة الفناء أشبه بغرفة، ومن الجهة الأُخرى تقوم غرف في الطبقة السفلى جميلة البناء بأعقادها وتتصل بها خزانة...».

---

(1) رحلة بكنغهام ص61.

ويردف بقوله: «... ولشدَّة الحر ينام الأهلون أربعة أو خمسة أشهر الصيف على السطوح آمنين المطر والندى، وللغاية عينها يوجد في كل من البيوت الواسعة غرفة تحت الأرض متقنة البناء (السرداب) لاتقاء حر الصيف...».

ثم يصف لنا مخازن الحبوب في الدور ويثني على فوائدها بحفظ الحنطة والشعير فيقول: «... ومن بنايات هذه المدينة الخاصة نوع آخر من البنايات تحت الأرض لحفظ الحنطة، الكبيرة منها متوسطة الحجم، ويتسع الصغير منها من 100 إلى 200 كيس من الحنطة. والكبير إلى 400، وهي عميقة بشكل ناقوس تحيط بها جدران قوية مطلية بالزفت لحفظ الحنطة التي يحتاج إليها الأهلون وتُسدّ باهتمام وأحياناً يُسد فم الحفرة إلى عمق ذراع تحت الأرض بحيث لا يشك أحد بوجود شيء في ذلك المحل. وهكذا كانوا يحافظون على سلامة الحنطة لمدة عشرين سنة أو أكثر. لذلك فإنَّ الحنطة عند الموصليين تبقى محفوظة عندهم بكميات كبيرة لبيعها متى شاؤوا لأكراد الجبال وأعراب الصحراء عدا التي يبعثون بها إلى بغداد عن طريق النهر...»[1].

ويصف ويكرام بيوت الموصل بقوله: «... إنَّ باحات المنازل من الداخل لطيفة المنظر وأقل ما يُقال عن طرز هندستها إنَّه أثري الطابع فهو مطابق تماماً لما وُجد في المنازل الآشورية... ومدخل المنازل الموصلية مبني بشكل يحول دون رؤية ما بداخل المنزل بالنسبة إلى المارة في الشارع أو عند فتح الباب. وهو يفضي إلى صحن الدار الذي يحيط به رواق من طابقين مدعم بالأساطين المدورة من المرمر الأزرق المحلى وصحن الدار مبلط

---

(1) مذكرات الأب لانزا ص13.

بالمرمر. وغالباً ما تبلط واجهة الدار بالمواد نفسها. وثم (إيوان) في جانب من البناء يستخدم للقيلولة زمن الصيف وقناة الماء القذر (البالوعة) وتكون عادة في باحة الدار. وفي وسط الصحن قد توجد حديقة صغيرة. ويضم الغني إلى مشتملات بيته (سرداباً) وهو المقيل الصيفي تحت الأرض تجد فيه أقصى ما يمكنك الحصول من البرودة في قيظ الصيف اللافح...»[1].

الخانات والأسواق والحمامات:

كان للتقدم الاقتصادي التجاري الذي أحرزته الموصل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أثره البيّن في تنشيط بناء بعض المرافق الحيوية في المدينة. فقد أدَّى ازدهار الحركة التجارية وازدياد نشاط القوافل بين الموصل وسائر المدن الأُخرى، وتحول الموصل بالتالي إلى سوق كبيرة، إلى اهتمام كثير من الأسر التجارية وصاحبة النفوذ بإنشاء الأسواق والمتاجر والخانات، كما أنشئت الحمامات العامة والمقاهي.

وليس أدلّ على مدى النشاط المعماري الذي طرأ على الموصل خلال هذا العصر، أنَّ تافرنييه الذي زارها سنة 1644 كان قد وصف المدينة بأنَّها: «تكاد تكون برمتها خربة، وليس فيها سوى سوقين معقودين.. وخانين حقيرين مكتظين بالمسافرين...».

هذا في حين كان في الموصل في أواسط القرن الثامن عشر ـ على ما يذكر نيبور ـ الذي زارها سنة 1766: «... في الموصل خمسة عشر خاناً أو بيوتاً عامة يأوي إليها الغرباء، وبينها

(1) ويكرام ـ مهد البشرية ـ ص72 ـ 73.

خمسة خانات صغيرة ورديئة أما البقية فهي كبيرة وواسعة وقد بُنيت خصيصاً لتوفير الراحة، أما المقاهي والحمامات والأسواق فإنَّ القسم الأعظم منها جميل وخلاب، على أنَّ أجمل وأحسن هذه المحلات العامة تعود إلى أقرباء والي الموصل الحالي وهو أمين باشا...»[1].

ويقدر دوبريه عدد الخانات الرئيسة بالموصل في أوائل القرن التاسع عشر، باثني عشر خاناً منها اثنان هما خان العلوة وخان المفتي لكل منهما ست وعشرين حجرة ويستعملان أيضاً لأغراض شتى كاعتقال الغرباء، وكمخزن لبضائع الگمارگ التي تُفرض عليها الرسوم...

ويصف بكنغهام المقاهي والحمامات في الموصل وكان قد زارها عام 1816 بقوله: «... والمقاهي في الموصل كثيرة وواسعة بوجه عام. والبعض منها قد يحتل أحد الشوارع بطوله ويمتد زهاء مائة يارد حيث تُصف المقاعد على جانبي الشارع يظلله سقف من الحصر... ويقدر عدد الحمامات بحوالي الثلاثين. ومع أنَّني قصدت بعض الحمامات الكبيرة إلَّا أنَّني لم أر فيها ما يمكن مقارنته بحمامات القاهرة أو دمشق...»[2].

وذهب الرحالة هود الذي زار الموصل عام 1817 أنَّه في الموصل: «... حمامات بديعة وهي أجمل ما رأيته في هذا المضمار فإنَّ واجهتها هي من المرمر وهي لطيفة ونظيفة. وبين الفنادق (الخانات) الستة عشر المفتوحة لإيواء المسافرين عشرة أو

---

(1) رحلة نيبور ص111.

(2) رحلة بكنغهام ص60 ـ 61.

اثنا عشر خاناً منها كبير جداً. وفيها يجد المرء كل ما يحتاج إليه حسب عادات الشرق وتقاليده...»[1].

أما عن أسواق الموصل فيصفها لنا أولاً فنشنسو بقوله: «... وقد مررت أكثر من مرة بأسواق المدينة فأخذني العجب من الأسعار البخسة التي تطلب لمختلف البضائع وقد اشتريت أشياء كثيرة... فالشاة الواحدة تباع بأربع شاهيات التي تعادل أربع قطع بولية رومانية... وقد أعطونا حملاً كبيراً من الفواكه بدرهم واحد أي بأفجة واحدة لا غير... أما أبقار الموصل فهي من جنس محسن جيد جداً ولا يزيد سعر البقرة عن قطعتين أبو شلبي، وتساوي القطعة الواحدة من أبو شلبي Talero واحد لا غير. أما الخيول فحدّث ولا حرج فهي من مختلف الأجناس فهناك الخيول الفارسية والتركية، والخيول العربية الأصيلة. لقد رأيت أعداداً كبيرة جيدة تباع بأربعة قروش أو خمسة، أما الحصان الذي تصل قيمته إلى اثني عشر قرشاً أو خمسة عشر قرشاً فهذا يباع في أوروبا بخمسين دينار أو ستين أقل تقدير...»[2].

ويصف بكنغهام أسواق الموصل بقوله: «... أما الأسواق فإنَّها وإن لم تكن مثل أسواق القاهرة في جمالها إلَّا أنَّها تتميز عنها بشيء واحد هو كثرتها ووفرة ما فيها من الحاجات والضروريات التي تأتيها من المناطق الجبلية. على أنَّ هذه الأسواق مفتوحة ومغطاة بسقوف وهي قذرة بصفة عامة وغير متناسقة ممَّا يشاهد أمثاله في هذا الضرب من المدن الشرقية. ولا توجد سوى سوق واحدة تُباع فيها السلع الغالية وهي أفضل

---

(1) رحلة هود ص2 حسب النسخة الخطية في خزانتنا.

(2) رحلة فنشنسو مجلة مجمع اللغة السريانية المجلد 1 ص194 ـ 198.

الأسواق في بنائها وتصميمها، وهي تغصّ على الدوام بأصناف عديدة من السلع الثمينة ممَّا تنتجه أوروبا والهند...»[1].

وجون آشر الذي زار الموصل عام 1864 يصف لنا الأسواق بقوله: «... الأسواق واسعة، لكنَّها قذرة ومحرومة من العناية اللازمة، مزدحمة في أغلب الأحيان يلتقي فيها الأكراد والأعراب للتعامل ومبادلة السلع والمنتجات. أصحاب الدكاكين أغلبهم مسيحيون ومعظمهم من الأرمن الذين يبدو في قابلياتهم مقدرتهم في شؤون التجارة.. وأغلب السلع في الأسواق الأصباغ والأقمشة القطنية بجانب الأطعمة والمأكولات التي يحتاجها السكان وفيها كثير من مصنوعات مانجستر وشفيلد...»[2].

ويتكلم بدج عن أسواق الموصل أيضاً وقد شاهدها سنة 1888 ويصف لنا السلع المعروضة فيها فيقول: «... السوق بنية عالية نسبياً وهي ناشطة التجارة، ولم أجد فيها حوانيت تبيع العاديات كما ليس لدى باعة الأقمشة إلَّا ما استورد من مانجستر، ومنسوجات حديثة جيء بها من حلب وعبثاً حاولت العثور على القماش المعروف بالموصلي الذي انبثق اسمه من اسم مدينة الموصل واشتهر في الشرق كله بسبب لونه اللطيف، ونعومة ملمسه. إنَّ كل ما عرض عليَّ كان من صنع إنكلترا وقد لفَّ حوله ألواح إنكليزية، وغلف بورق إنكليزي وطبعت عليه أسماء صانعيه من الإنكليز... ورأيت في دكان جرار أدوية إيطالية عليها أسماء العقاقير باللغة اللاتينية... وكان عرض

(1) رحلة بكنغهام ص61.

(2) رحلة جون آشر ص193.

الخضر أيام السوق لطيفاً حقاً، لكن الأسعار على ما تراءت لي كانت عالية، ولا توجد في المدينة سگائر (التتن) هو الشيء الوحيد الذي يمكن شراءه وهو يستنبت في جبال كردستان. إنَّه يباع بشكل أوراق ضخمة، ويقوم المشتري بتقطيعها وسحقها باليد ثم يوضع في ورق خاص ويلف ويدخن. إنَّ هذا النوع القديم من سكائر رفيع من طرف وغليظ من الطرف الآخر وكثيراً ما تنفك فيتساقط ما فيها وهو متقد على المدخن[1].

(1) رحلة بدج ج1 ص288 ـ 289.

هنري بنديه

رحلة إلى كردستان في بلاد ما بين النهرين

ندرج هنا المحتوى التفصيلي لرحلة بنديه الفرنسي بما شاهده وكتبه عن مدينة الموصل التي زارها عام 1885 مع مرافقه إميل هاملن الفرنسي أيضاً ومعهما مرافقين آخرين ومنهم جيروم الإيطالي، وسيمون وبطرس ونانو بصفة مترجمين مع الطباخ يوفان. وقد ترجمها الأب يوسف حبي ونشرها بالطبع في أربيل عام 2001 عن طريق دار ئاراس. ولقد اخترنا منها ما يخص مدينة الموصل وحياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، من الصحيفة 32 إلى الصحيفة 94.

ومن الجدير بالذكر أنَّ دخول الرحالة إلى الموصل كان في اليوم الثامن من شهر تشرين الأول عام 1885م، وغادرها في اليوم الخامس عشر من الشهر ذاته، أي مكث فيها ثمانية أيام.

من العمادية إلى الموصل

العمادية، الدخول إلى المدينة. القائمقام. السيد زيا. السكان واشتغالاتهم. تجوال في المدينة. حديث مع القائمقام. الرحيل عن العمادية. أرادن. عشاء مع الخوري. ترجمة سيمون. نترك وادي گارا. رهشفري. دهوك. سهل الموصل. قرى زراعية. ضفاف دجلة. شرور الأهالي. السقوط والحوادث في الطريق. الوصول إلى الموصل. يرفضون استضافتنا. إلى القنصلية الفرنسية[*].

تقع العمادية على صحن مسطح ارتفاعه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة متر فوق معدل سطح الوادي. البساتين خلابة. يترك السكان المدينة للسكن في البساتين، ولا يظل فيها سوى التجار واليهود. لقد كانت المدينة في السابق قلعة ذات شأن، كما يمكن أن نحكم عليها من الأطلال[1].

الصحن كله محصَّن، وثلاثة أبواب تتيح الدخول إليها. ندخل نحن من الباب الشرقي، سالكين طريقاً مشقوقاً في الصخر، قد

(*) إنَّه القسم الثالث من الفصل السابع من الرحلة.

(1) بحق يقول بنديه إنَّ العمادية كانت ذات شأن، فهي مدينة آشورية قديمة (أمياتي)، ثم عاصمة إمارة بهدينان الشهيرة، وقلعة مهمة جداً، ورد ذكرها في أخبار الملك الآشوري شمسي ـ أدد الخامس (823 ـ 810ق .م)، ثم بُنيت القلعة في العصور الإسلامية، وجددت أكثر من مرة.

كان له أن يكون المدخل الوعر بالنسبة للمهاجمين[1]. وثمة رواق ذو قوس وباب كبير حديدي مقفل ومجموعة حراس من الجنود المساكين يقفون في المدخل. والضابط الذي لم يكن يعرف مع من يتعامل، خشية قدوم سلطات مهمة، يقوم أمامنا باستعراض للسلاح، نطلب أن يقودنا إلى الوالي (القائمقام)[2].

ليست المدينة سوى كومة خرائب، يعيش فيها شعب بسيط. وليس قصر الوالي (القائمقام) سوى بناية كبيرة، وإنَّما في حالة مزرية.

نترك سيمون في حراسة القافلة (الكروان)[3]، ونقدم أنفسنا، أنا وهاملن، إلى الوالي (القائمقام). نفهم بفرح أنَّه يتكلم الفرنسية. ويزداد فرحنا إذ نلتقي بالسيد زيّا الذي كنّا قد صادفناه

---

(1) إنَّه باب الزيبار، والبابان الآخران باب بهدينان أو باب الموصل، وباب السراي أو الأمَّارة، وما تزال بعض آثارها الجميلة شاخصة.

(2) يستعمل بنديه بدون تفريق كبير مصطلح الوالي Gouverneur ومصطلح القائمقام Kaimagan ومعلوم بأنَّ الوالي مسؤول منطقة كبيرة نوعاً ما، بينما يدير القائمقام ناحية صغيرة. وقد كان يحكم العمادية يومذاك قائمقام عثماني يعيّن بإرادة سنيَّة من استانبول، ويتبع مركزية صارمة، لأنَّ العمادية بعد سقوط إمارة بهدينان سنة 1250هـ/ 1834م على يد محمد باشا الصوراني الملقب بميري كوره. واندحار سعيد باشا ابن محمد باشا ابن إسماعيل باشا سنة 1258هـ/ 1842م للجيوش العثمانية، ومحاصرة العمادية مرة أُخرى، في السنة التالية، من قبل والي الموصل العثماني، أجرى عليها أخيراً نظام الحكم العثماني سنة 1273هـ/ 1857م. فلا عجب أن تتضرر العمادية كثيراً بسبب هذه الحروب والمنازعات، فتصبح كومة خرائب، كما يلقاها بنديه (انظر: أنور المائي، الكُرد في بهدينان، الموصل 1860، ص172 ـ 177، صديق الدملوجي، إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية، الموصل 1952، ص39 ـ 40).

(3) ترجمنا لفظة Caravan التي يستعملها بنديه، وجميع الرحالة، بكلمة (قافلة).

ما بين باشكاه وواه. يتذمَّر القائمقام من رداءة الطرق ومخاطرها. أظن بأنَّه قد أرسل إلى هاهنا بسبب كارثة ما، وليس له سوى يومين على وصوله، ويتشكَّى كثيراً من طباع أهالي البلد، فهم ينظرون إليه بعين شزرة لأنَّه يتكلم الفرنسية ويرتدي ثياباً أوروبية. يستقبلنا استقبال شخص مثقف ومهذب، ويضع ذاته تحت تصرفنا، وينصحنا أن نذهب فنسكن في بيت يعود للدومنيكيين[1]، غير مأهول حالياً، إذ سنكون وحدنا، وبحرية أكبر.

إذ نودع القائمقام، نسأل أن يوصلونا إلى الدار المذكورة. إنَّها تقع في الجهة الغربية، على ضفة الصحن المشرف على الهاوية (الروبال).

البيت مشيَّد في فسحة فناء مسيجة بحائط. ننزل أحمال البغال، ونرتب الخيم (الجوادر)، ونسكن في غرفة صغيرة واقعة في الطابق الأرضي، ثم نخرج حالاً لزيارة المدينة. كأنَّها قد أصيبت بآلاف إطلاقات القذائف لكي تمسي على هذه الحال. نلقى، بين الآونة والأُخرى، كوخاً حقيراً يكاد يكون صالحاً لمأوى عائلة فقيرة. أهم مهنة الأهالي: الحياكة والغزل. نجتاز سوقاً، ويزعجنا جندي شبه مجنون فيؤخرنا ربع ساعة، وسيمون يقوم بالترجمة. يحكي لنا بأنَّ الحمَّى تصيبه وهو بحاجة إلى كينين[2]. المدينة العليا لا

---

(1) الدومنيكيون آباء مرسلون ينتمون إلى الرهبنة المسماة برهبنة الواعظين، مؤسسهم القديس عبد الأحد (دومنيك) في القرن 13م. وقد كانوا من أصل فرنسي يومذاك، وسبقهم إلى بلادنا إيطاليون، وكانت لهم رسالة في الشمال في بعض الفترات والمناطق، كما في العمادية. جدد رسالتهم فيها الأب لمي سنة 1863، وكانت قد أغلقت يوم زار بنديه العمادية.

(2) كان ينظر إلى جميع الرحالين الأجانب كأطباء، وقد تأخر الطب في الفترة العثمانية في بلادنا كما هو معلوم.

يسكنها سوى يهود، فهم يشكلون قسماً كبيراً من السكان، ويعيشون بتآلف مع المسلمين، وتتزوج اليهوديات أحياناً بمسلمين، بينما لا يتزوج اليهود نساء مسلمات[1].

الناس قصار القامة وملامح أوجههم معتدلة. أما بالنسبة للنساء، فلم يعط تزاوج الجنس اليهودي والجنس الكردي نتائج جيدة، فهن قصيرات ومزريات. وجههن ليس كريهاً، غير أنَّ جسدهن المستخدم بزواج مبكّر جداً، لم يتح لهن بلوغ النضوج. فآذى العنصر كله. ونحن لا نلقى شكلاً جميلاً لنساء هنديات أو يهوديات في الجزائر أو في مراكش.

السوق صغيرة جداً، تحميها أغصان تضمن لها نور الشمس. نلمح من بين المارة أشخاصاً سوداً. النساء ينظِّفن الحنطة أمام أبوابهن، ومن خلال الفتحة المستخدمة في المنازل الضيقة، نرى نساء ينسجن الأقمشة بصناعة بدائية.

ثم نعود إلى الجهة الشمالية الغربية من الصحن المسطح، من جهة بيت الوالي. وندخل إلى خان قديم متهدم، كما هي بقية الأماكن. إنَّه قائم، مثل مسكننا، على حافة الصحن، حيث نجد منظراً جميلاً جداً مطلاً على البساتين والأخدود الذي جئنا منه. تتعارض نضارة البساتين مع المنحدرات القاحلة المكسوة ببعض عوسجات. بوسعنا القول إنَّه ضلع فهد كبير يتهادى في البعيد.

نقضي الأمسية في إعداد آلة التصوير، بينما يرقد سيمون، تقلقه

(1) ليس القول الأخير أكيداً. ويستعمل بنديه لفظة (محمديين) بدلاً من (مسلمين). ويتناسى بنديه بأنَّ معظم الأهالي هم في البساتين صيفاً، بينما ليس لليهود بساتين، لذا ظنَّ عددهم أكبر ممَّا كان عليه فعلاً.

أحلام مزعجة، أمّا يوفان فأقل تأثراً، فينسى أن يضع ماء في القدر بحيث يغدو اللحم والملفوف ناشفاً، فننام من دون أكل، لكنّنا ننام بشكل أفضل.

5 تشرين الأول (أكتوبر):

نقوم بزيارة القائمقام، ونسأله، إن كنّا نستطيع بواسطته الحصول على قافلة (كروان)، فيضع حالاً رئيس الجندرمة (الشرطة) تحت تصرّفنا. وأثناء ما يهتم هذا بنا، نتحدث إلى السيد زيّا. إنّه يتذمر بمرارة من عدم شعور رؤسائه بالمسؤولية، وإنّه حين سمع مؤخراً بضرائب المناجم وزارها، تحدث عنها إلى رئيسه مشيراً إلى الفائدة التي ستكون للدولة في استغلالها، إلّا أنّ الجواب كان بأنّ الأمر لا يعنيه، وأن لا يتدخل منذ الآن فصاعداً في شؤونه. وهو يثق قليلاً جداً في الرجل المكلّف بالبريد ما بين العمادية والموصل، بحيث يطلب منّا أن نوصل له رسالة أو رسالتين خاصتين إلى مكتب الموصل.

لدى خروجنا من لدن الوالي، لاقينا رئيس الجندرمة الذي عرّفنا على شخص تركي ـ عربي، نصف مسلم ونصف يهودي[1]. طلب منّا ثلاثة مجيديات ونصف عن الحصان الواحد للذهاب إلى الموصل، وهو سعر باهظ، لأنّ السعر الاعتيادي لم يكن سوى خمسة وثلاثين قرشاً، ثم إنّه لا يريد أن يتخذ الطريق التي قررناها. نخلص إلى الاتفاق حول النقطة الأولى، شرط أن يوافقنا على الثانية، ويقدم رئيس الجندرمة نفسه ضماناً

(1) يبالغ بنديه في تشخيص هذا الرجل، وهو يفعل ذلك كثيراً عندما يتحدث عن الأشخاص والعادات.

لتنفيذ العقد بالنسبة للطرفين. أسلم ليرة تركية من العربون إلى الشيخ المسلم، ولكي أشكر الموظف، أعطيه بوصلة صغيرة من فضة مذهَّبة كنت أحملها في سلسلة الساعة. كنَّا قد جلبنا معنا نحو عشرين بوصلة، وحين كنَّا نود التعبير عن اعترافنا بالجميل تجاه شخص لا نستطيع أن نكرمه بقطعة نقود، ولو أنَّه كان سيتقبلها، كنَّا نفكّ السلسلة، وبعد دقائق نضع بدلاً منها أُخرى لاستخدامها للغرض عينه.

تنقضي ساعة والبغال لم تصل، ويأتي دليل القافلة ليعلمنا بأنَّ أحد حيواناته مريض، ولا يمكننا أن نسافر اليوم. كنت متأكداً أنَّها أكذوبة. فأجبته: إذا لم تكن الجياد والبغال جاهزة خلال نصف ساعة، فعلى رئيس الجندرمة أن يتدبَّر الأمر. فكان عليه أن يستنجد بعمامته البيضاء، لأنَّ خمسين من الضربات المحكمة ستعلِّمه كيف يلتزم بكلامه، لذا نراه يأتينا بعد ربع ساعة مع جميع حيواناته.

ساعة الرحيل، يأتيني التركي الشيخ قائلاً إنَّه لا يستطيع أن يتخذ الطريق التي قد اخترناها. مشاهد جديدة، ومناقشات أُخرى. أخيراً، بعد نفاد الصبر، أترجَّل عن الحصان وأمسك الرجل من كتفه، وأتوجه به نحو قصر الوالي. فلا يشك الرجل بضربات العصا، لذا يهرع رجاله، وهم يقبِّلون قدمي وثيابي، مترجِّين بأن لا أعاقب سيدهم.

نجتاز الأحياء الفقيرة التي وصفتها، ونخرج من الباب الغربي. إنَّ هذا الباب غريب جداً. العقد الخارجية هندسية ومزينة بزخرفة عربية (أرابيسك) وأفاع متشابكة[1].

(1) يقصد به باب القلعة أو باب بهدينان أو باب الموصل، وفيه نقوش وإشارات، منها الحية والعقرب وطير يشبه الصقر، ويشرف على الوادي العميق. وتدور حوله وحول البابين الآخرين حكايات شعبية مختلفة.

الطريق نصفه محفور في الصخر، والنزول خطر جداً، بحيث كنّا بحاجة إلى الترجُّل على الأرض. إنّه درج نصفه متهدّم، مكوَّن من صخور ومن حصى مهذَّب وصالح للاستعمال بفضل عامل الزمن.

بعد مسيرة عشرين دقيقة، نتمكن من امتطاء الحيوانات، لأنَّ الطريق الآن سهل، وسط عوسج ورمان وأدغال. وتنتهي البساتين، أمَّا المنظر فلا يزال منثوراً بشجيرات. نقتفي المسار الشمالي المتجه جنوباً لواد كبير حيث يصبُّ نهير (سرني) المنساب من گارا[1]، ويمضي حتى يصبُّ في الزاب الكبير. وبالسير وسط الضفاف، نسيطر على العمق، فننذهل أمام منظر ظلال قمم الأخدود الآخر الذي يشكل سلسلة طويلة تمتد خطاً مستقيماً حتى يتيه النظر فيه شرقاً وغرباً.

ألتقط صورة شاملة للعمادية من أعلى جبل صغير، ولكي تكون آلة التصوير جاهزة بسهولة، أجعل شرطيّنا الوحيد يحملها على ظهره، وهذا، يرى أطراف الحقيبة صلبة، ينزع بنطلونه ويضعه كمسند ما بين الحقيبة والكتفين دون أن يعبأ بخصوصية الزي.

أطراف العمادية هي الآن أكثر هدوءاً من ذي قبل، بعد أن كانت إلى بضع سنوات موبوءة بقطاع الطرق، بحيث كانت جرائم القتل فيها يومياً. نصادف طوال الطريق رمم حجارة ذات ذكريات غير محمودة، تشير إلى موقع حدثت فيه جريمة ما، فقد عثر على رجل ميت في الطريق، فأقيمت في الموضع، بل تدفن بإلقاء حجارة عليها. نصادف أيضاً أربعة

(1) نهير يسميّه Surné ولعلّه (صبنا) أما (گارا) فالجبل المعروف في المنطقة، يقابله (متينا).

لصوص مقيدين بأغلال خشبية، يستريحون في الظل، يرافقهم شرذمة مكوَّنة من خمسة جنود[1]. نلاحظ في سفح الجبل مغائر وكهوفاً طبيعية ليس فيها ما يسترعي الاهتمام، تُستخدم ملاجىء للقراصنة والحيوانات، وأحياناً لمسافري القوافل أثناء اللّيل.

ونصل أخيراً (أرادن)، وهي قرية للكلدان. نحلُّ في البيت الذي يسكنه الخوري (الكاهن)[2]. يقوم بضيافة كريمة تجاهنا، ويقدم لنا غرفته الخاصة. لقد كان في مرسيليا، ويعرف بضع كلمات إيطالية، إنَّما ليس بما فيه الكفاية لكي نتفاهم. يريد بكل الوسائل أن نتقبل منه غرفته. إنَّها عبارة عن غرفة صغيرة مربعة، أثاثها كله مكوَّن من سرير خشبي. ويلحُّ لكي نشاركه العشاء. فيحملون إلينا فوق منضدة صغيرة، علوها عشرون سنتمتراً، أربعة صحون مملوءة أرُزاً ومرقاً من أنواع مختلفة من الدجاج والخروف. نجلس على أسرتّنا التي هي بمثابة الكراسي، فتوضع المنضدة أمامنا، والكاهن إزائنا على كرسي كبير من خشب خشن، وليس للأب سوى ملعقة واحدة، ونحن نأكل في صحوننا، بينما سيمون الجالس بقربنا يأكل بأصابعه (باليد). نجعله في البداية يأكل معنا، غير أن نقص الذوق يجعلنا ننكر عليه ذلك. يختم العشاء بفواكه أعناب وإجَّاص ورمان وجوز وفستق، تنمو كلها في قرية أرادن.

---

(1) انطباعات رحالتنا، كالعديد من الرحالة، نتيجة مشاهدات سريعة، وملاحظات قد يبديها أشخاص معينون لا يعكسون وجه الحقيقة، فلا عجب أن يقع الرحالة في مبالغات وأخطاء ينبغي التنبه إليها وعدم اعتبارها حقائق تاريخية موثوقة.

(2) قرية أرادن Araden هنا هي السفلى، قرب أينشكي. ويستخدم بنديه كلمة Cur'e وتعني الكاهن أو القس أو خوري رعية في كنيسة ما.

سيمون الذي يترجم، يغيِّر بشكل وقح ما نريد أن نقوله للخوري. فبعد العشاء، إذ رأينا بأنَّ الأب لا يشرب الشاي، سألناه عن السبب، فطلب أن يقدموا له أيضاً، وأخذ يشرب على مضض، فقد قال له سيمون بأنَّنا سوف ننزعج إذا لم يتناوله!

يأمر الخوري، بعد العشاء، أن ينشد ثلاثة أو أربعة أطفال نشيداً أرمنياً[1]. إنَّها الصلاة من أجل الضيوف. وينسحب الكاهن في الساعة التاسعة، لكي يتركنا نرتاح. لقد أغلقنا الباب، وليس ثمَّة شباك، لكي نحمي أنفسنا من الفضوليين، لكنَّنا نسمع كلاماً في الخارج، ومع أنَّنا لا نفهم الأحاديث، فإنَّنا نتكهن بأنَّها تدور حول الأوروبيين.

القرية صغيرة وليست بذات شأن. ثلاثون بيتاً تقريباً. الأطفال طيِّبون، ومعظمهم شقر. النساء بحال جيدة لولا وضعهن حلقة في الأنف. الرجال طيِّبون، منصرفون إلى أعمال الحقل. ويبدو أنَّهم يعيشون بذكاء جيد. نادراً ما يتركون قريتهم، بحيث إنَّ العديد منهم لم يذهبوا حتى إلى العمادية. يستخرجون من القرية كل ما يصلح لغذائهم وكسوتهم.

6 تشرين الأول (أكتوبر):

في الساعة السادسة، إذ كنَّا نقوم بإعداد أمتعتنا، جاءنا الكاهن قبل ذهابه إلى القداس، متمنياً لنا سفراً ميموناً، فأعطيناه هدية

(1) بدلاً من أن يقول اللغة (الآرامية) يقول خطأ (الأرمنية)، والخطأ واضح، فإنَّ أهالي أرادن والمنطقة، من المسيحيين، يتكلمون (السورتُ)، ولغتهم الطقسية الكنسية هي الكلدانية (الآرامية، السريانية) لا الأرمنية.

لفقرائه. وقد أراد أن نترك له قليلاً من الكينين، إلّا أنَّ الاحتياطي الذي كان ينفد بسرعة شديدة لدينا، وحاجتنا الكبيرة إليه، جعلنا نرفض[1].

نترك القرية في الساعة السادسة عبر طريق مسيَّج بالحسك، مملوء بالحجارة والحصى. نسير ببطء عبر هضبات وجبال صغيرة، ونجتاز جدولاً يتبع مسير الوادي الكبير، في الوسط منه. ونصعد بجهد المنحدر المقابل، في منتصف الضفة، نلاحظ للمرة الأخيرة صحن العمادية فوق جبال أُخرى. الأرض حمراوية، لا تنتج سوى سنديانات صغيرة وفقيرة، تنمو عليها عفصات بعدد كبير وبحجم البلوط.

نصل الساعة العاشرة إلى عين ماء قد جرى الاهتمام بها، وذلك بإحاطتها بالحجارة، فغدت مسقى للقطعان. ونعبر إلى وادٍ آخر أراضيه أشدّ حمرة. المنحدر الأيمن الذي نسلكه هو الوحيد الذي فيه غابات بلوط. وثمّة أيضاً توت شوكي ثمره أكبر بكثير ممّا في أوروبا، بحيث تبلغ الثمرة الواحدة بحجم التفاحة، طعمها لذيذ جداً، وقليل اللذوعة. نصادف خيم بدو شبه متوحشين، رجالاً ونساءً وأطفالاً عراة، مثل آدم وحواء، يستحمّون في غدير، وهم منهمكون في أعمالهم دون أن يبدو عليهم أي حرج بوجودنا.

نتوقف أبعد قليلاً من هناك، قرب عين، للغداء. ويغدو الطريق فوراً أكثر مطروقاً، إذ قد وصلنا طريق الداوودية، أي المنعطف

(1) لم يكن العلاج الطبي متوفراً في البلاد عهد ذاك، وكان الكينين Quinine يستعمل في حالات الحمى وغيرها من أمراض، لذا كان مرغوباً جداً، وكان الرحالة يعرفون ذلك، فيجلبون معهم كميات للانتفاع والتوزيع هنا وهناك..

المهم[1]. نلتقي بقوافل كبيرة مكوَّنة من جياد وبغال تزعج حيواناتنا، وتسبب صدمات عنيفة لصناديقنا. نصادف كذلك قطعان ماشية عديدة، أصواف الخرفان طويلة جداً وملساء، وثمَّة قبائل رعاة وبدو. تبدو في الطريق آثار عمل جدّي، غير أنَّها طرق تالفة جداً بسبب انعدام الصيانة، بحيث كدنا نتيه مرتين وسط الأدغال.

نترك رشفري[2]، لكي نتجه غرباً. يحيرني هذا الاتجاه، بحيث إنِّي أطلب من سيمون أن يتأكد فيما إذا كان أدلاء القافلة في الطريق الصحيح. كان ادعاؤه أنَّهم يعرفون الطريق. ومن المستحيل أن تحصل على شيء أكثر من هذا من سواسي البغال[3].

نترك قرية (زاويته)[4] إلى جهتنا اليسرى، فأندهش أكثر وأكثر من الاتجاه المستمر نحو الغرب، حتى أفهم مساء، من سيمون، أنَّنا بدلاً من التوجُّه نحو القوس ودير الربان هرمزد[5] نسير إلى دهوك، وهو غير الاتجاه الذي كنت أود سلوكه. لقد اتَّخذ سواسو البغال الاتجاه الذي يناسبهم. آمر وأنا مغضب بأن يتقاضى

---

(1) قرب (كوري كفانا). والداوودية قرية معروفة قرب بامرني، ويكتبها هكذا: Daoudiyé

(2) نهير وقرية Rechevré أو ريشور قرب مجمَّع كوري كفانا حالياً.

(3) يستعمل بنديه كلمة Katerdjis للدلالة على دليل وأدلاء القوافل، أمَّا سائس أو سائق البغال فهو حسبه muletier واللفظة الأولى تركية، بينما الثانية فرنسية ولا يستخدم بنديه لفظة (حكاري) كما يفعل رحالون آخرون.

(4) مصيف زاويته المعروف، ويكتبها: Zaouitha

(5) كان الرحالة يحبون زيارة ألقوش ودير الربان هرمزد للاطلاع على المعالم التأريخية والآثارية هناك. وناحية ألقوش معروفة، تقع على بعد 45كم من الموصل، ويقع دير الربان هرمزد في لحف الجبل، وهو من القرن السابع الميلادي. يكتبها بنديه: Alkosh, Rabban Hormouz

مسؤولو القافلة تأديباً يتذكرونه دائماً، فقد تصرَّفوا ضد اتفاقيتنا، فيدَّعي (صاحب القافلة) أنَّ الطريق الآخر غير آمن، ويقدِّم لنا مائة سبب سلبي. نقتفي ضفة منحدر شديد الخطورة. ثمَّة قطع صخور عديدة منسلخة عن أطراف الوادي ترغمنا على الصعود أو على النزول باستمرار، فيذكرني هذا طريق بطرق سلكتها في كابيليا[1]. نمرُّ على بعد مئات الأمتار يبدو قد أشعلوا النيران احترازاً من الدببة والفهود. نستشفُّ ملامحهم من خلال اللهبات. لقد خيَّم اللَّيل، وأجراس بغال الأمتعة وحدها تسمح لي بأن أسير وراءها.

نجتاز وسط وديان ضيِّقة، ولدى الخروج منها، نلمح في البعيد بعض النيران. إنَّها دهوك[2]. نتوجه إلى خان، ودهوك هي على الطريق السالك بين الموصل ووان، عبر تبليس وسعرت. وبما أنَّنا متأخرون، يفتح لنا صاحب الخان باستياء. ووسط فناء مملوء بالجياد والحمير، يصعب علينا إنزال حمولة حيواناتنا، وعلينا أن نحترس لئلا يسرق أحد أكياسنا. مرة أُخرى نلعن سواسي البغال الذين لم نتمكن من جعلهم يتخذون الطريق التي اخترناها، ويعملون كل شيء لكي نتعرف متأخراً على الاتجاه الخاطىء بعد أن يكون قد أمسى من المستحيل اتخاذ الدرب الصحيح.

غداً مساء سنصل لدى الدومنيكيين في الموصل[3] حيث سنلقى استقبالاً ينسينا رداءة الطريق. أمَّا الآن، فإنَّنا اتخذنا سكنانا في

(1) Kabylie لفظة تطلق على هضاب عديدة في الجزائر.

(2) قرية دهوك يومذاك هي اليوم مركز محافظة الشمال الغربي من العراق. يكتبها رحالتنا هكذا: Dehook

(3) إنَّهم الآباء المرسلون من رهبنة الأخوة الواعظين المعروفين بالدومنيكيين أو الدومنيكان. وقد كان مقرهم في الموصل منذ عام 1750، ثم تمَّ استبدال الدومنيكين الإيطاليين بفرنسيين عام 1840.

الطابق الأول، في غرفة نصلها بواسطة شرفة خالية من الدرابزون، وضيقة جداً، وذات فتحات كبيرة بوسع المرء أن يعبر من خلالها. والدرج الصاعد إليها مكوَّن من درجات عددها خمس وثلاثون، علوّ كل منها أربعون سنتمتراً. فالصعود إليها بحقائب ضخمة عمل من أعمال الجبابرة.

7 تشرين الأول (أكتوبر):

لقد قضينا ليلة مريحة في هذا المأوى الأمين، نوعاً ما. وفي الساعة الرابعة أيقظت جميع رجالي، لأنَّ المرحلة حتى الموصل طويلة.

ما تزال الظلمة في الفناء، وبالكاد نميِّز جيادنا التي نسرجها نحن بأنفسنا. إنَّنا بحاجة إلى ساعتين لإعداد الرحل.

دهوك قرية ذات ستين بيتاً تقريباً، متوسطة الأهمية. الوالي أمير، له تحت أمرته نحو عشرين شرطياً (جندرمة). قلعة قديمة وتالفة جداً تستعمل الآن كمحل سكن له، لكنَّه قد شرع بتشييد بناء جديد[1].

من المفروض أن تكون البلدة حارة جداً، فقد اتخذ السكان جميع الاحتياطات، إذ وضعوا على سطوح المنازل عرازيل أغصان، واختاروا السكن فيها. في الساحة، مقابل قصر الخان الرديء، مقهى تركي صغير، مبنى كهذه المنازل البدائية للمرتادين. الطقس في هذا الموضع واضح، فإنَّه مضمون من جهتي الشمال

(1) من المحتمل أن يكون قصر أمير أو آغا دهوك في محلة السوق، حيث مركز الشرطة. أما محلات دهوك القديمة فهي: شيلي، برايتي (النصارى)، الشيخ محمد (الإسلام)، السراي، گري باصي.

والشرق بجبال عالية، ومعرَّض من الجنوب الغربي لرياح جزيرة العرب المحرقة.

خلال بضع دقائق نصبح خارج المدينة. نسير بمحاذاة (نهر) الرشفري. عرضه بحدود أربعة أو خمسة أمتار، وعمقه نحو متر في الوسط، تملأ ضفافه ورديات، وإلى اليمين سهل فسيح قد فاض فيه الغدير مراراً، تنمو فيه حشائش عالية ما تلبث أن تيبس بفعل الشمس، وثمَّة عليقات وأحساك، وإلى اليسار تل شديد الاستقامة، يتبعه الطريق إنَّنا في وسط ضفافه، والفيضانات المتعاقبة تشرح اختيار هذه الطريق الأشد تعرضاً للأخطار، إنَّما في حمى من المياه[1].

نبلغ بعد ساعة ونصف من المسير رأس هذا الجبل الصغير، وندور حوله، فنلقى أنفسنا في الصحراء، إنَّه سهل الموصل، الجانب الشمالي الشرقي من سهل شنعار الذي يرجع تاريخه إلى الطوفان[2]، إذ قيل بأنَّ أولاد نوح قد استقروا هنا، وأخذت الأرض تمتلىء بالسكان من جديد بعد ذاك الخطب الجلل. وهذا السهل ذو وديان متموجة طويلة قليلة الارتفاع، تأمل أن تكتشف في قمة كل مرتفع سهلاً منبسطاً، إلَّا أنَّك ما أن تصل إليها حتى تلقى مرتفعاً آخر يهيمن على الأُفق مسافة كيلومترين أو ثلاثة، وفي نهاية كل واد قصير جدول صغير، إذا لم تشربه الرمال فإنَّه يصبُّ في دجلة، الذي يجري غير بعيد عن الطريق، فإنَّنا نلمحه في البعيد.

الشمس محرقة، والطريق ترابي. وتتعاقب الخطوات دوماً

---

(1) انظر الهامشين (2) و(3) ص89 ولم يترك لنا بنديه صورة لبلدة دهوك كما فعل بالنسبة للعمادية. ويمرُّ في دهوك نهران صغيران: ريباري دهوك وريباري شكرو.

(2) انظر الفصل العاشر من سفر التكوين من التوراة (العهد القديم).

بالرتابة عينها. ويبدو الأُفق تارة دانياً، وطوراً قصيّاً. لقد بوشر بشقّ طريق ينبغي أن يصل الموصل بدهوك، وجزيرة ابن عمر، وسعرت، وبدليس، وأرضروم، لكنَّه ما يزال من حجارة مسحوقة لا تجري العجلة فيها، وتسير القوافل إلى جانبه، فقد أنجز خط واحد، أما البقية فمؤشرة لا غير، ويتبع هذا الطريق خط التلغراف، ويمرُّ بتللسقف وتلكيف[1]. نهمل هذا الاتجاه لكي نسلك طريقاً أوسط وأشدّ استقامة، يقع بين الطريق ودجلة.

البلد خصب وقليل الزراعة[2]. ثمَّة مساحات كبيرة غير مزروعة، تليها حقول ضخمة قد تمَّ حصادها، تختلط بالأولى من بعيد، غير أنَّ السنابل المقتطعة بالمنجل تظل الشاهد الأوحد على زراعتها، فإنَّ المحراث الخشن، وهو عبارة عن مجرفة من خشب، لا يسوِّي الأرض جيداً، بل يترك فيها أثراً دائماً.

نصادف مجموعة من ثلاثة أو أربعة مساكن لمزارعين يعيشون تائهين بدون ظلال في هذا السهل، إذ ليس ثمَّة شجرة، ولا تنمو أية نبتة قرب أكواخ الطين هذه. الزروع قد حصدت، وهم يعملون الآن على فصل الحبّ عن السنبل، ضمن دائرة قطرها ثمانية أو عشرة أمتار، إذ تدور جياد، طيلة النهار، تحت شمس محرقة، وهي

(1) بلدتان معروفتان، الثانية حالياً قضاء، والأولى بلدة كبيرة. يكتبها بنديه: Tel Ouskof, Tel Keif

(2) النباتات الزراعية والحبوب هي المنتوجات الوحيدة للبلاد (آشور قديماً)، بها ينعم الناس، بحيث يظل صحيحاً ما قاله هيرودوت في الكتاب الأول، الفصل 193، فهو البلد الأشدّ خصباً من سائر البلدان. ولا يحاول الأهالي زراعة الأشجار، فلا نرى أشجار تين ولا كروم. والأرض صالحة لجميع أنواع الحبوب، وقد تحمل أحياناً مائتي ضعف ما يزرع .(الرحالة).

مربوطة ببعضها، لكي تسحق بحوافرها التبن الملقى تحت أقدامها. يحتفظون بالحبوب في البيوت، أما التبن فيجمع بعد التنقية في كوم عالية وطويلة، تغطّى بملاط مصنوع من التراب والماء أيام الأمطار مخلّفاً مستنقعاً. وقد تحفر أحياناً آبار تدر مياهاً غير صالحة. قرب أحد هذه المستنقعات توقّفنا لكي نريح حيواناتنا.

سوف أذكر حياتي كلها الغداء الذي تناولناه في ذلك اليوم. فقد كانت تجهيزاتنا قد نفدت، ولم يبق لنا سوى عظم فخذ بقر مطبوخ منذ أربعة أيام، كان يقتضيه عينا فهد لاكتشاف شريحة اللحم، وكان مغلّفاً بالقرع، وبعض قطع فطر تبان بصعوبة، ولاستكماله بيضتان مسلوقتان من عهد العظم، وقليل من اللبن الناشف، وكشراب ماء المستنقع، لأنَّ البئر كانت يابسة[1]. بعد نحو ساعة، أسرج الجياد، ونبدأ بالرحيل. الحرّ شديد جداً. وتموجات الأرض الفسيحة تتعاقب. وتنخفض حرارة الشمس بعد الساعة الخامسة. والموصل التي ينبغي أن تبدو من بعيد، لا تبدو بعد للعيان. وأخيراً هضبة أخرى، نسيطر منها على سهل منفسح يتهادى فيه دجلة كالأفعى في البعيد، ونلمح الموصل وسط الأُفق تقريباً[2].

أيام كانت نينوى قائمة، تلك العاصمة الكبيرة الزاهرة، كان المكان الذي نحن الآن فيه مقرّاً مؤقتاً لحاكم أراد أن يستريح بعض الوقت من صخب المدينة، إنّما دون أن تغيب المدينة عن

---

(1) فرنسي ولا يأكل جيداً... عشرات المرات نلقى رحّالتنا يصف الأكل والأكلات ووجبات الطعام، فالمائدة الفرنسية معروفة بالأناقة والمراسيم الدقيقة، ويبدو أنَّ رحالتنا من محبّي البطون والأكلات.

(2) يكتب بنديه الموصل على الطريقة الفرنسية Mossoul. مركز محافظة نينوى حالياً، ومدينة قديمة وشهيرة. وصفه للطبيعة المحيطة بالمدينة دقيق وجميل، كما عوّدنا أن يفعل في سياق الرحلة كلها بشأن الوصف الطبيعي والجغرافي.

نظره، كنسر يحرس فرخه من أعلى صخرة قريبة. فإنَّ هذه الهضبة هي حقاً بقايا حجارة ليست من الأرض الطينية التي قد سرنا فيها منذ الصباح، وبعد أول عمل تخريبي تمَّ على أيدي البشر، أقامت عوامل الزمن فيها كل أنواع الأطلال.

لقد منحتنا رؤية الهدف المنشود شجاعة كنَّا بحاجة إليها، لأنَّ التعب كان قد سرى فينا. غير أنَّ حيواناتنا لا تعرف عين الأسباب مثلنا لكي تشعر بالحماس، إنَّها منهكة وضربات السياط وحدها تحملها على السير.

بما أنَّنا سنصل متأخرين إلى الموصل، أرسل سيمون قدامنا لكي يعلم الدومنيكيين بوصولنا، ويبين لهم أوراقنا، ويطلب إليهم أن يتنازلوا ويقبلوا باستضافتنا، إنَّها الساعة السابعة، والظلام مخيَّم تماماً.

دجلة عريض وعميق، لا يمكن عبوره على الأقدام، يتوزع إلى آلاف الجداول. ونحتاج إلى معبر كبير للوصول إلى جسر القوارب الذي يسمح لنا بالدخول إلى الموصل.

ضفاف النهر خصبة، يقدر ما بوسعنا أن نحكم عليها ليلاً. وبيوت كثيرة تحاذي الضفاف. نقتفي قناة يسقط فيها أحد جياد الأمتعة. بينما يسهر هاملن على بقية القافلة، أساعد أنا الرجال لسحب الحصان من الورطة. سواسو البغال يريدون أن يختصروا الطريق، إلَّا أنَّهم يتيهون في الخرائب التي لا تحصى، فهي تحيط بنينوى. نلقانا وسط قوافل جمال نائمة، نوقظها فتلاحقنا لعنات الجمَّالين، وبصعوبة نتمكن من البقاء منتظمين. نلمح شخصين أو ثلاثة قرب مجموعة بضعة بيوت، فنسألهم عن الطريق، ويخرج أُناس من المنازل فيرموننا بوابل

منِ الحجارة، بحيث إنَّنا نتخلص ركضاً، حتى نغوص في عمق اللَّيل. ويفضل إطلاقتي مسدس، يحترسون من اقتفاء أثرنا، لكنَّنا نتيه مرة أُخرى، ويسقط أحد جياد الأحمال الذي كان يسير في المقدمة، وعلى قاب قوسين من سائس كان يسير بهدى أنوار الموصل، في حفرة عمقها أربعة أمتار وعرضها سبعة. فيتبعثر الحمل بأسره، وتتكسر الأحزمة، ويتأذى الحيوان، فتضيع أكثر من نصف ساعة لإصلاح الضرر. الحفرة سبب السقوط هي مهد الخوصر الناشف[1]. ننزل الحيوانات الأُخرى في الحفرة بكل عناية، ونقتفي آثار المجرى اليابس، حتى نصل جسر الطريق الذي ينبغي يوماً ما أن يصل الخط الذي بوشر به في دهوك، ففي تركيا لا يستعجلون[2].

نتبع النقاط التلغرافية، ونعبر فرعاً صغيراً لدجلة، مشياً على الأقدام، فنبلغ أخيراً جسر الموصل. الجياد لا تقوى بعد على الوقوف من شدَّة التعب.

المدينة يغلّفها اللَّيل. نلقى سيمون بانتظارنا، فيفتح لنا الأبواب. منظر سيمون غريب، لقد أصابته ضربات الحجارة في

---

(1) نهر دجلة أحد الرافدين العظيمين في البلد، وبالفرنسية Le Tigre أما الخوصر الذي يغدو كبيراً في موسم الأمطار وذوبان الثلوج ويجفُّ صيفاً، فيكتبه بنديه هكذا: Hassertchai

(2) عدة مرات يسجل بنديه ملاحظة كهذه بشأن البلاد وأوضاعها، وينسب التقصير إلى الحكومة العثمانية، فهي، ـ حسبه ـ متعمدة في إبقاء البلاد متخلِّفة. انظر الفصل 11 من (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) تأليف لونكريك، ترجمة جعفر الخياط. ومعلوم بأنَّ الرحالة يشخص حالة متدهورة للبلاد، العراق والموصل بالذات، فقد انتهى حكم ولاة وطنيين أفادوا البلاد، وكان يتولى السلطة يومذاك ولاة عثمانيون لا يهمهم كثيراً أمر تطوير المنطقة.

القرية الصغيرة التي عوملنا فيها بشكل غير مستحبّ. وقد قدَّم نفسه للدومنيكيين، لكنَّهم، حسبما قال لنا، استقبلوه بشكل غير جيد: «ثمَّة خانات في المدينة، فليقض هؤلاء المسافرون فيها»، كان جواب الآباء «وسنرى غداً ماذا بوسعنا أن نعمل لهم».

هل من الممكن أن يصل فرنسيان منهوكي القوى، فيستقبلان هكذا من قبل مرسلين فرنسيين، مع أنَّهما يقدِّمان لهم رسائل توصية من البيت العام للرهبنة، ورسالة من الحكومة غداً، سنطلب شرحاً لهذه الملاقاة الغريبة. أمَّا الآن فليس لنا أن ننام في الساحة العامة من الموصل، لذا أقرع أبواب عدَّة خانات، ولا أحد يريد أن يفتح. إنَّهم سعيدون وحجَّتهم الساعة المتأخرة لرفض مأوى لهؤلاء الكلاب[1]. ورغم أنَّ سيمون كان قد سبق وأفادني بغياب القنصل، منذ يومين، فإنِّي أسأل أن يقودوني إلى القنصلية. لقد كان عليَّ أن أبدأ من هناك.

بعد ربع ساعة من السير وسط مجاهل طرقات ضيِّقة كلها متشابهة، نصل إلى القنصلية. ويتردَّد البواب قليلاً لدى استقبالنا، لكنَّني أذكر له اسمي، يتذكر بأنَّ المسيو (السيد) سيوفي ينتظرني[2]، وقد تحدَّث أكثر من مرة عن وصولي، بل قد وضع جانباً الرسائل التي قد وصلتني، لذا يفتح الباب حالاً، فننزل أحمال الحيوانات، وبما أنَّ الغرف مقفلة، يفرغ

---

(1) تعبير آخر من تعابير بنديه النابية، وقد قلنا إنَّه متعجرف، يحمل الأُمور على غير محملها، فينسب أي تصرف لا يرضيه إلى التعصب.

(2) نقولا سيوفي M. Sioffi (1829 ـ 1901) من دمشق، مُنح الجنسية الفرنسية عام 1866، وعيّن في القنصلية الفرنسية في بغداد سنة 1873، وفي حلب سنة 1875، ثم في الموصل سنة 1878، وأصبح قنصلاً فرنسياً في موقعه الأخير، ثم أحيل على التقاعد فسكن في بعبدا بلبنان. ترك عدة مؤلفات. انظر الهامش (1) ص80.

مسكنه تاركاً إيَّاه لنا. فننصب بسرعة أسرَّة المخيَّم. ويحمل إلينا خبزاً، وخمراً، وجبن ماعز. لم تطب لي وجبة أكل أشدّ من هذه.

يعطيني القوَّاص[1] رسائلي، فأجد بينها رسالة من أختي الصغيرة تقول لي: «تشجَّع!». وننام سعداء، تحت حماية العلم الفرنسي المنشور على الحائط، فقد بلغنا نهاية هذه الرحلة الطويلة.

(1) القواص خادم شرف لوجهاء القوم. وسيشرح بنديه ذلك في الهامش (1) ص107.

الموصل ـ نينوى ـ خورسباد(*)
من 8 إلى 15 تشرين الأول

لدى الدومنيكيين. المونسينيور التماير. الديوان. قنصل إنكلترا. المنارة المسيحية: برج الساعة. الموصل والشرق: تاسيسها. أطراف الموصل: النبي يونس. طرقات الموصل، الأسواق المقاهي، الاسترخاء (الكيف). العربات. المونسنيور (المطران) بهنام بني. الأكلاك. الخشب في الموصل. جسر قرب النهر. المقابر. مدارس الأخوات الراهبات والآباء (الدومنيكيين)، ومطبعتهم. الأسطرنجيلية، السريانية، الكلدانية. الأسوار. تغيرات مجرى دجلة. حبّة (بثور) الموصل. بناء الكلك. زيارة السلطات. استقبال على الطريقة التركية. السكاير. غداء في القنصلية الإنكليزية. قصة دببة. ضفاف دجلة: بطائح وغدران، درّاج، أسماك، عيون كبريتية. النائحات (المعددات). زيارة أطلال نينوى وخورسباد. تل قوينجق. بوتا. خورسباد، الحفريات. بيوت مزارعين فلاحين. حائط طابوق مرسوم. تلول تخفي العنقاء. مذبح ثلاثي الأرجل. كيف حفظت الأطلال، تاسيس القصور. الغرف، الجدران،

(*) إنّه الفصل الثامن من الرحلة.

السطوح، الأيام. مجمل القصور. سنحاريب وسرحون. الكتابة المسمارية، وأنواع الألفاء المختلفة، وكيف اكتشفت. مسيو سيوفي. مسجد السلطان لؤلؤ. الصابئة. من الموصل إلى البحر المتوسط. بالميرا (تدمر)، الدير، سنجار، أورفة. باعة السوق. تجهيز الكلك. الرحيل عن الموصل.

فور استيقاظنا، رجونا القواص أن يسخن لنا ماء، وشرعنا بالاغتسال. لا يمكن أن يستطيب ذلك إلّا من كان مثلنا قد حرم منه خلال أسبوع كامل. فنحن منذ تسعة وعشرين يوماً ننام بثيابنا، فوق أسرَّة مخيَّم. أية مفارقة مساء أمس، إذ إنَّنا بعد أن منينا النفس أن نلقى سريراً، وجدنا أنفسنا في أمسِّ الحاجة لكي نحتضن مخدَّتنا الحقيرة.

وبعد الاغتسال، ذهبنا لدى الدومنيكيين. واحد منهم ينوب عن القنصل لدى غيابه[1]. والبيت على بعد خطوتين. وقد كان المونسنيور ألتماير[2]، رئيس أساقفة خلقيدونية والقاصد على ما بين النهرين، على وشك الخروج حين قدمنا أنفسنا. كان يبدو مستعجلاً، وسألنا أن نعذره. وقد وجهنا إلى الأب الناظر (الرئيس)، الأب دڤال الذي استقبلنا بكل مجاملة[3].

---

(1) هو عادة ناظر الرسالة أي رئيس الآباء الدومنيكيين، وهو في هذه الحالة الأب دڤال. انظر الهامش (3).

(2) Mgr Altmyer هنري ألتماير (1844 ـ 1930)، ولد في بيزانسون، وأصبح دومنيكياً سنة 1862 وكاهناً سنة 1869، وأرسل إلى الموصل عام 1874 بصفة أمين سر القصادة الرسولية. وبعد وفاة المونسنيور ليون أصبح وكيلاً، ثم قاصداً سنة 1884، ورئيس أساقفة على اللاتين في بغداد عام 1888، حتى استقال عام 1902 وعاش في فرنسا حتى وفاته.

(3) P. Duval بيير دڤال (1832 ـ 1904)، ولد في تول، وأصبح دومنيكياً سنة 1856 =

تحدَّثنا نصف ساعة، واستفسرنا عن الاستقبال البارد جداً يوم أمس. كان سيمون اللاهث بسبب الركض الذي قام به بعد وابل الحجارة التي استقبلته في الموصل، قد وصل لدى الآباء شبه رجل سكران، فأصدر الأوامر وهو يتهدد: «أوروبيان يصلان، أعدا لهما غرفة، وامضوا أمامهما». فأصيب الآباء بصدمة، بادىء الأمر، إذ افترضوا أنَّنا قد سلبنا، وأنَّ سيمون قد يحمل رسائل مسروقة. وبما أنَّ الساعة متأخرة ليلاً، طلبوا إليه أن ينسحب. الاستقبال الذي قام به هؤلاء السادة فيما بعد، كان وديّاً، بحيث إنَّنا نسينا ذاك الانطباع المزعج. ورغم ذلك، فهم مع اعتبارهم سيمون سارقاً أو مجرماً، أما كان عليهم قبل كل شيء أن يوقفوه ويتأكدوا فيما بعد من افتراضهم؟

يقدِّم لنا الآباء المحترمون غرفة كبيرة وجميلة بسريرين. فنقضي الصباح في ترتيب أُمورنا، ونفرغ ظهراً، فنتعارف على الغداء. في غرفة الأكل، أنا إلى جانب المونسنيور ألتماير، وهاملن قرب الأب الناظر. المونسنيور ألتماير يوشك على السفر إلى بغداد. إنَّه على أهبة السفر، ومهمته ليست بهيِّنة، فهو سيقود خمس راهبات لإدارة روضة أطفال، ومعه السكرتيران، الأب هنري والأب دي سيكونزاك وحماية كبيرة[1]. لقد أمر بصنع كلك[2] خاص بذلك،

= وقصد الموصل بعد سنة بمعية الأب ليجييه، وأدار الرسالة عدة مرات حتى استلم الناظرية رسمياً بعد موت الأب بيسون عام 1872. عاد من فرنسا سنة 1873 مصطحباً راهبات التقدمة، وأسس عام 1878 معهد مار يوحنا الحبيب في الموصل، ورسالة سنة 1881، وقلاية سعرت سنة 1882، وقلاية جزيرة ابن عمر سنة 1885، وأصبح قاصداً رسولياً على سوريا سنة 1895 وتوفي في بيروت.

(1) إنَّهما الأبوان الدومنيكان De Segonzac, Henri

(2) الكلك هو الاسم المعطى للقوارب التي تسير منحدرة في نهر دجلة (الرحالة).

وضمن تجهيزات كبيرة، لأنَّهم يستغرقون من ثمانية إلى عشرة أيام، وأحياناً أحد عشر يوماً لركوب دجلة، ولا يجدون أكلاً في الطريق، لأنَّ دجلة يجري في صحراء.

يجتمع هؤلاء السادة، بعد الغذاء، في ديوان[1] ليتحدثوا على الطريقة الشرقية. ففي هذه الساعة من النهار الحرّ شديد إلى درجة أنَّه لا يمكن لأحد أن يعمل أو ينام.

والغرفة المسماة بالديوان مناسبة لذلك بشكل رائع. مثلها موجود في كل البيوت المريحة في الموصل. إنَّها غرفة كبيرة مربعة، لها سقف على شكل العقدة (القبة)، وتقع في الطابق الأرضي، وهي عالية بعلو طابقين، معرضة الانتفاح للشمال بغير جدار في الجهة هذه. يجتمعون فيها لتدخين الغليون أو النرجيلة[2] وللحديث والاستقبال.

لم أستمتع في أي مكان آخر براحة الحياة الشرقية[3]. الغليون الذي لا ينبغي أن نخلط بينه وبين (القليان)، يُسمَّى (شيبوك). إنَّه (السبيل) ذو الأنبوب الطويل المستقيم والصلب، مصنوع عادة من جذع ياسمين، موقده (مكان النَّار) على الأرض، وقطعة كبيرة من

---

(1) ورد هكذا: Divan ويصف بنديه الديوان بشكل دقيق.

(2) إن اسم نرجيلة من اللفظة العربية (نرجيل) وتعني الجوز (جوز الهند)، فإنَّ هذه الثمرة المفرغة كانت تعوّض سابقاً عن الإناء الذي يستخدمه المدُخنون الآن. وقد كان للسبيل (pipe) آنذاك شكل القليان (الغليون) الفارسي، ولم تكن الساق ليِّنة ملساء كما هي اليوم و(الرحالة).

(3) يستخدم رحالتنا هنا لفظة إيطالية هي farniente تعني اللاعمل، أي عمل لا شيء، لكي يقرّب إلى أذهان الأوروبيين ما يقصده الشرقيون بكلمة (الكيف) التي يسجلها كما هي في موضع آخر (انظر الهامش (2) ص109)، ويقصد بذلك الاسترخاء، والاستمتاع، والراحة، والأنس، ويبالغ في وصف الشرقيين بأصحاب «كيف».

العنبر تنهي الطرف الآخر، تنطبق على الشفتين دون أن تشدّ عليها بالأسنان، كما هي غلايينا الأوروبية، التبغ الذي يدخنونه عذب وشهي، وأكثر عطراً من تبوغنا، إلَّا أنَّه خالٍ من نكهة خاصة، فهو من التبغ، تافه وسيىء المذاق كالتبغ الذي يُباع في باريس تحت اسم التبغ التركي.

لحظة كنَّا على وشك الخروج. في نحو الساعة الثانية، يأتي دليل القافلة لكي يسوّي الحساب. ويطلب سيمون أن يظل بضعة أيام أُخرى معنا، فنحتفظ به رغم كونه يسبب لنا بعض المشاكل، إذ بوسعه بعد أن يقدِّم لنا بضع خدمات.

نمضي لزيارة قنصل إنكلترا الذي كان زميله في وان قد رجانا أن نسلِّمه كلمة. لقد أصابته حمى خبيثة يتخلَّص منها[1]، ولا يبدو أنَّه لقي الإقامة في الموصل مغرية. إنَّه يحب الصيد كثيراً، وهي أهم وسيلة لهو بالنسبة إليه، لذا غالباً ما يمضي فيقضي ثلاثة أو أربعة أيام وحده، برفقة خادم، في الجبال على بعد مسيرة يوم من الموصل. للاستراحة من القهوة الأبدية، يقدم لنا بيرة إنكليزية، من المفروض أن تكون جيدة وهي في إنكلترا، إلَّا أنَّ السفر لا شك قد أذاها كثيراً.

عدنا الساعة الرابعة لدى الآباء، وصعدنا إلى قبة ناقوس الكنيسة حيث يبدو منظر المدينة بشكل عام. لقد بذلوا جهداً كبيراً في بناء قبة الأجراس هذه. إذ لم يكن للمسلمين أن يروا، من دون ما حسد، ارتفاع منارة مسيحية إلى جانب منائر النبي. لكن

(1) نظنها الملاريا.

الأمر تغيَّر عندما وضعوا في القبة ساعة ذات أجراس تعلن عن المواقيت[1].

لقد كانت الطريقة الوحيدة التي استطاع الدومنيكيون بواسطتها أن يجعلوا الناس يرتضون بوقع الأجراس. فإنَّ الأهالي يجدون الساعة مريحة، يستشيرونها مراراً، ويسمّون القبة برج الساعة. والوقت فيها مقسم على الطريقة التركية (العربية): إذ تدق الساعة الأولى عند مغيب الشمس، وينبغي ضبط الساعة كل ثلاثة أو أربعة أيام.

من المؤسف أن تكون الكنيسة واقعة في مكان من المدينة مائل إلى الانخفاض، وليس لها منظر مفتوح إلّا من أعلى قبة الأجراس، من هناك فقط بوسعك أن تسيطر على السطوح المستوية للمنازل ذات المسحة الداكنة. كلها ذات علو متساوٍ، ترتفع فوقها بعض المساجد ومنائرها. وإحدى المنارات مائلة، وفي زعم البعض أنَّها إحدى المنائر التي انحنت أمام النبي[2].

الموصل، بسبب موقعها، إحدى المدن المهمة جداً في بلاد ما بين النهرين. إنَّها المرحلة العظمى في طريق الغرب والشرق. وهي التي تربط أوروبا بالهند في جميع الطرق المفتوحة (الخيالية) لسكك الحديد. إنَّها تقع على الطريق كمركز

---

(1) يرجع تأريخ برج الساعة أو برج الأجراس إلى العام 1882. أما تشييد كنيسة اللاتين للآباء الدومنيكيين في محلة الساعة فيسبق ذلك، إذ ترجع البدايات إلى سنة 1865 ـ 1866، وتدشينها سنة 1872.

(2) إنَّها الحدباء، منارة الجامع النوري الكبير، كملت عمارته سنة 568هـ/ 1172م، ويبلغ ارتفاع المنارة 51 متراً.

خدمات مهم، فالموصل واقعة على دجلة، في موضع يغدو فيه النهر صالحاً للملاحة بالنسبة إلى القوارب ذات الأهمية التي لا بأس بها، وتصل إليها قوارب أخرى صغيرة قادمة من سعرت وديار بكر. والموصل هي المركز الذي تلتقي فيه كل القوافل الوافدة من الشمال والغرب والشرق، ومنها تحمل حمولتها إلى بغداد عبر النهر، حيث تنقلها قوارب تجارية إلى أوروبا.

المدينة مأهولة بنحو أربعين ألف نسمة. ليست من تأسيس قديم، جداً إذ إنَّها اكتسبت أهميتها منذ العهد الإسلامي، بفضل تجارتها النشطة أولاً، ثم بفضل صناعة الأقمشة البديعة[1]. أما اليوم فشهرتها تأريخية فحسب، بيد أنَّ موقعها الجغرافي قد يجعلها تحيا يوماً.

إزاء الموصل، على الضفة الأُخرى من دجلة، يقع تل قوينجق حيث نينوى القديمة، وكان موقعها قد اختير بشكل عجيب، كعاصمة للأمبراطورية الآشورية، ومركز كبير للسكان، لأنَّها على مقربة من الجبال، بوسعها أن تستمد منها ما ينقصها من السهل، وتسيطر بسهولة على مساحات البلد المستوية لبلاد ما بين النهرين. ولا ريب أنَّ النهر، كسائر أنهار البلد، لم يكن له حجم مياه أكبر، ولم يستخدم لمواصلات أكثر أهمية ممَّا هو عليه اليوم[2].

---

(1) الموزلين أو بالأحرى (الموصلين) من الموصل، قماش بل نسيج مشهور، يقول بنديه بشأنه: يزعمون بأنَّ الموصل هي التي أعطت اسم القماش الذي تصنعه باسم moussoline وإنَّه قد استورد من الشرق. والأمر الصحيح، كما يذكر ماركو بولو منذ القرن الثالث عشر الميلادي. (انظر رحلة ماركو بولو المعروفة باسم المليون).

(2) معروفة في أهمية الموصل ومكانتها، واسمها خير معبِّر كطريق مواصلات شديد الأهمية. أما بالنسبة لعدد السكان فقد كان من الصعوبة بمكان التوصل إلى =

وإلى جانب تل قوينجق، الذي سآتي على ذكره بعد قليل، توجد قرية النبي يونس الواقعة على هضبة صغيرة. وفي الجامع، كما يُقال، رفات النبي يونس والتينة التي بكى عليها[1]. والتل الذي عليه بُنيت القرية يضم، على حد قول بوتا وبلاس اللذين درساه[2]، بقايا سيكون من المثير جداً إبرازها إلى حيّز الوجود. إنّما للقيام بالهدم الضروري لإجراء الحفريات، لا بدَّ أولاً من التغلُّب على التعصب الشعبي والإدارة السيِّئة لحكومة جاهلة.

يجرّنا الحديث حتى تبلغ ساعة العشاء. لدى جلوسنا على المائدة لا نقوى، أنا وهاملن، عن الامتناع عن التسمّم، فقد أصيب كلانا بالخذلان أمام رؤية عشاء هزيل مكوّن فقط من مخضرات وجبن، غير أنَّ الآباء كانوا ذوي تنبّه لطيف، إذ قدَّموا لنا صحن بيض. وبعد العشاء نجتمع في الديوان ثاني، حيث نتحدث هنيهات أُخرى حول منضدة فوقها فانوس كبير[3]. خلال نصف ساعة، ينسحب الآباء لإتمام واجباتهم الدينية، بينما نمضي نحن إلى غرفتنا، وللمرة الأولى منذ تسعة وعشرين يوماً، نرقد بهناء وسط شراشف سرير حقيقي.

= إحصائيات دقيقة (انظر: الحياة في العراق منذ قرن، تأليف بيير دي فوصيل، ترجمة د. أكرم فاضل، القسم الرابع).

(1) يقع النبي يونس على التل المعروف بتل التوبة، تيمّناً بوقوف النبي يونس (يونان) عليه ودعائه إلى الله لكي يبعد اللعنة عن القوم، وله قدسية خاصة عند المسلمين. والتل أثري كما ينوّه بنديه مستشهداً ببوتا وبلاس، وقد شيد عليه، في قرون ما قبل الإسلام، دير باسم دير مار يونان.

(2) سيرد ذكر بوتا وبلاس لاحقاً، وقد برز للعيان ثور مجنح من الحلاّن مقطوع الرأس أثناء عملية ترميم جامع النبي يونس في تشرين الثاني (نوفمبرُ) 1986.

(3) إناء كبير من الزجاج توضع فيه لمبة (مصباح) أو أي ضياء آخر .(الرحالة)

9 تشرين الأول (أكتوبر):

بدل لذَّة الاسترخاء التي كان بوسعنا أن نقضي صباحنا فيها، ننهض باكراً لكتابة بضع رسائل، فإنَّ البريد ينطلق اليوم في الساعة العاشرة، ولا يرحل إلّا كل ثمانية أيام. ننزل في الساعة العاشرة، والآباء مجتمعون في الديوان، حيث يستقبل المونسنيور زيارات التوديع، فهو سيسافر مساءً.

بعد التحدث بضع دقائق، ننطلق، هاملن وأنا، يرافقنا سيمون وبعض القواصين[1] إلى القنصلية. لقد اشتد الحر كثيراً في تلك الأزقة الضيِّقة الصغيرة. البيوت متشابهة، داكنة، مشيَّدة بالتراب المسحوق والمجفف في الشمس بحيث يعكس الحرارة ويحافظ عليها[2] إنَّها نظيفة نسبياً هذه الطرقات الصغيرة. بعضها مبلَّط بألواح من حجر. لكنَّها متاهة حقيقية، على المرء أن يكون متعوّداً عليها لكي يطوف فيها ويتمكَّن من معرفتها.

يمرُّ الطريق أحياناً تحت بيت معقود على شكل قنطرة، فنلقى حينذاك بعض الظل والبرودة. وغالباً ما تكون القنطرة واطئة،

---

(1) أظن أنّي قد أعطيت شرحاً لكلمة (قواص) انظر الهامش (1) ص98 حيث ذكر الرحالة اللفظة دون إعطاء شرح لها فشرحناها. وهو يفيدنا هنا بما سمعه لا شك إبان إقامته في الموصل): إنَّهم الجنود القائمون بخدمة السلطات والموظفين الأجانب، يسيرون أمامهم لإبعاد الجمهور عنهم وحمله على احترامهم، إذ يصعب على غريب أن يسير دون أن يصحبه أحد، فالجماهير ستزدحم حوله. وهؤلاء القوَّاصون نزيهون ومخلصون عادة، ولا يصحّ اختيارهم من بين المسيحيين، لأنَّهم قد يلجأون أحياناً إلى الضرب وليس لأحد سلطان عليهم (الرحالة). لا ريب أن ندرة الزوار والأجانب في البلاد كانت تبعث على الدهشة في نفوس الأهالي.

(2) إنَّه الجصّ المعروف في الموصل والمستخدم في معظم البنايات.

بحيث يتوجب على الفارس أن يترجَّل عن الفرس لكي يتمكن من العبور، من حين لآخر نصادف حميراً صغيراً تختفي تحت حمولة حزم الحطب أو التبن، فعليك أن تلتصق بالحيطان إذا ما أردت أن تتجنَّب التدافع والتخرق.

تنفتح أمامنا ساحة عارية ما تلبث أن تصلها قافلة بحميرها وجيادها وجمالها حاملة الرزم[1]، فيها بغال وهودج مخصّص للنساء. إنَّ هذه العربة أشبه بمنبر، فهي صندوق مربع ذو مرايا ست، كالبرلينية القديمة، ولها أبواب ذات مجرَّات مثبتة فوق محامل يوضع بينها بغلان يحملانها، الواحد من الأمام والآخر من الخلف. إنَّ طريقة التنقل هذه هي الأكثر ترفاً حسب ما هو معروف في ديار العرب، إذ ينبغي أن يكون ثمة حيوانان آخران للتبديل، لأنَّ الصندوق ثقيل، ويتخذ الجلوس فيه شخصان، والحيوانات التي تُستخدم لهذا الغرض لا تقوى عليه أكثر من نصف نهار، لذا فهي مجموعة أربعة حيوانات تمضي بصعوبة بخطى متساوية، وليس ثمة ضمان ضد الصدمات والأذى للسير في طريق غير معبَّد وغير مستو. والمحامل التي ليس فيها مرونة، هي مثبتة بشكل مباشر على بردعة الحصان بواسطة سلاسل[2].

ندخل السوق. الدكاكين صغيرة وواطئة، فهي حوانيت صغيرة مكعَّبة شبيهة بالخزانات، تحاذي طريقاً قصيفاً ضيقاً، تتوسطه ساقية شديدة الإزعاج في السير، لأنَّ المنحدر يدفعك نحو الوسط باستمرار، وثمة جذوع وأغصان (حصران) تغطي هذا الممر

---

(1) نظنها الفسحة المعروفة بباب الطوب وما قبلها، وهي حالياً في قلب مدينة الموصل.

(2) إنَّها العربات الضخمة.

فتشكّل ما يشبه الرواق تتكون تحته ظلال ورطوبة نسبية. ومن وقت إلى آخر، حصان أو جمل يخنق الطريق بشكل تام، حتى أنّه قد يبدو أكبر ممّا هو عليه في هذا الحيّز الضيّق.

بعد أن قطعنا بالتتالي: سوق الصفّارين، وحي الخفافين، وتجار الأقمشة، والخزافين الفخارين، والصاغة، والقصابين، والأخير فظيع بسبب كثرة الذباب ورائحة اللحم المتفسّخ، إذ يتعفّن بسرعة بسبب الحرارة، بلغنا ساحة أُخرى مختلفة عن الأولى كثيراً[1]. أية فوضى وأية حركة فيها. ليست أسواق الهال في باريس في الساعة الخامسة صباحاً بأشدّ حركة منها. إنّهم باعة الفواكه، البطيخ، الرقي، والحلويات، يشغلونها ببسطهم، والجماهير تتجوَّل وسطها، وحولها المقاهي، وأكواخ خشبية وجصية، حيث الرواد جالسون بثيابهم على مقاعد حصران يدخنون الشيبوك، والنرجيلة، والقليان، ويحتسون القهوة، ويقضون وقتهم (الكيف)[2]. الطابقان الأرضيان (من المقهى) مكتظان، أما العلوي فلا تلقى فيه موضعاً.

---

(1) هذه أسواق كانت معروفة كلها حتى سنوات قليلة خلت (انظر: تأريخ الموصل لسعيد الديوجي، ص51 ـ 52: سوق الشعارين، سوق القتابين، سوق السراجين، سوق البزازين، سوق الطعام، سوق الحشيش، سوق الدواب والخ).

(2) نجهل في أوروبا ما هو (الكيف)، وليس لنا كلمة تؤدّي معناه، ولا يقوى أوروبي يقصد الشرق على القيام بالكيف إلّا متى تعوَّد عليه، فهو أكثر من إهمال وكسل، لأنَّه نسيان تام وإرادي لكل ما يشدّك إلى الحياة. إنَّه نوم اليقظة، مشحون بأحلام لذيذة، وهو خلوّ من الهموم مهما كانت المشاكل أو بوسعها أن تحصل. وليس ثمَّة شرطي واحد لا يمارس (الكيف) مرة واحدة في النهار على الأقل، وغالباً ما يكون ذلك خلال أربع أو خمس ساعات (الرحالة). وهو يكتب الكلمة هكذا: Keip.

لقد أزفّ الوقت الذي ينبغي أن نصل فيه مسكننا، لأنَّ الساعة تسرع. لذا نسأل القواص أن يدّلنا على أقصر طريق. كيف يمكنهم معرفة الطريق؟ فالطرقات هي عينها: زوايا، ومتعرجات، وخطوط مستقيمة، وفي الأطراف حيطان عارية.

الحياة هي حميمة في الشرق، والشبابيك مفتوحة في الحيطان الداخلية، وخلف باب الدخول، نلقى جداراً يمنع السابلة، فيما إذا كان الباب مفتوحاً، من رؤية ما يجري داخل البيت.

حين نصل الجماعة (الدير)، نلقى المونسنيور ألتماير يتقبل عبارات الودّ من جميع الذين يشاهدونه مغادراً الموصل. نجلس على المائدة للغداء، فيقدمون لنا حلويات المنّ.

إنَّها المرة الأولى التي آكل منه، ويبدو لي مذاقه لذيذاً حقاً. الحلوى مزيج من المنّ واللوز (الجوز) والحليب والطحين والسكر والعسل، تسحق بشكل قرص صغير[1]. وبعد الأكل، نجتمع كالعادة في الديوان، حيث نتجاذب أطراف الحديث مع المونسنيور منتظرين مغادرته. يأتي رئيس الأساقفة الأرمني (السرياني)[2]، المونسنيور (المطران) بهنام بني لرؤية زميله متمنياً لو يرافقه. إنَّه شخص ذكي جداً وذو فضل كبير.

(1) (منّ السماء) نوع من المن والسكّر وبياض البيض، يغدو أبيض بفعل الحرارة، ويضاف إليه الفستق عادة، والجوز واللوز أحياناً، ويغلّف بالطحين منعاً للالتصاق إذ يصنع على شكل أقراص صغيرة. وهو يصنع في الموصل بأفران خاصة حتى يومنا هذا، ويُعتبر من أجود الأنواع.

(2) مرة أُخرى يخطىء بنديه فيقول (الأرمني) بدلاً من السرياني. والمطران بهنام بني رئيس أساقفة السريان الكاثوليك على الموصل منذ عام 1862 ثم بطريرك أنطاكية على السريان الكاثوليك سنة 1892.

أخيراً تأزف ساعة الرحيل. إنَّه موكب حقيقي: ستة قواصين بأزيائهم الرسمية يفتتحون المسيرة، يليهم رئيسا الأساقفة، نتبعهما وسط الرهبان، ما بين الأب دي سيكونزاك والأب هنري اللذين نعطيهما موعداً قريباً في بغداد. وخلفنا طلبة المدارس. بأقل من ربع ساعة نصل ضفة النهر حيث القوارب، في الجنوب الشرقي من الموصل، خارج الأسوار، في ضاحية صغيرة.

جميع الحقائب مجموعة في قارب على حدة تحمله مائتا قربة، إضافة إلى التجهيزات والخدم والجندرمة، وعلى القارب الآخر المحمول فوق مائتين وعشرين قربة، خيمة منصوبة ومقسومة إلى شقتين، للراهبات وللآباء.

لا يوجد خشب في الموصل، إذ لا تنمو أية شجرة. والريف بأسره يبدو، ظهر صحراء جرداء. لذا فإنَّ الخشب الذي تشيّده به هذه القوارب يصل من مناطق واقعة قرب ديار بكر وسعرت وبتليس. تلقى الأشجار المقتطعة في دجلة، فتصل الموصل حيث تباع بسعر جيد، وإذ تصل بغداد تتضاعف قيمتها. تشطر سيقان الأشجار إلى قسمين، وتشدّ بواسطة أربطة وجذوع، وتوضع تحتها القرب المنفوخة بالهواء. تُستأجر القرب من قبل أفراد يقومون بتأجيرها لقاء خمسة قروش للواحدة.

كأنَّنا في الوداع الأخير، يسيّر القاربين كلكان، يمضيان بتؤدة في الاتجاه المطلوب. نصعد إلى سطح التلغراف الأوروبي الذي يهيمن على النهر وعلى قسم من المدينة، فنشاهد الكلكين يبتعدان. إزائنا قرية النبي يونس، وإلى اليسار جسر الموصل.

سكان (بونه) بفضل حميتهم ابتنوا جسراً على بعد فرسخين من

(ساوون) حين مازح بيرون أهالي بورغونين، لم يكن يفكر بأنَّ رباعيته هذه بوسعها أن تنطبق على الموصليين[1] لقد كان من المقرر أن يُشيّد جسر على دجلة في الموصل. فاختير الموقع الأشدّ ضيقاً، فإنَّ عرض النهر هو مائة وثمانية وستون متراً في هذا الموضع، ولكنَّهم لم يفكروا بأنَّ هذا الموضع هو كذلك الأشد عمقاً. ولأنَّه كان لا بدَّ من إقامة جسر، راح الأهالي يطالبون به قلباً وقالباً، ولم يكونوا يستطيعون بناءه على النهر. لذا نراهم قد بنوه إلى جانب النهر، إذ إنَّه سينفع، كما قيل لهم، حين يفيض النهر. وبقي جسر القوارب، يضطرون على العبور بالزوارق. وبما أنَّ الأهالي يجدون من السهولة أن يبلغوا الضفة مباشرة، وإنَّ الفيضان يتجاوز السدّ أحياناً كثيرة، كان الجسر غير صالح البتة.

خلف البيت، توجد مساحة كبيرة فارغة تمتد حتى الأسوار، كأنَّها منطقة عسكرية. في هذه الفسحة يجري دفن الموتى دونما اهتمام بنظامها، إنَّما باتجاه مكة دائماً. ولا شيء أكثر بساطة من هذه المقبرة، فهي ساحة عامة، تُستعمل قبورها عادة كمصطبات، إذ تُداس دون أي اعتبار يمنع ذلك، بحيث تدفع الأوروبيين أيضاً إلى القيام بمثل ذلك. يلعب الأطفال حول القبور، وتستريح قوافل جمال كبيرة في وسطها، بل إنَّهم يتركون الحيوانات تقضم الأعشاب الحقيرة التي تنبت في زوايا الصخور. ويدفن المسلمون موتاهم بسرعة، بعد الوفاة بساعتين، حتى لو كانت الوفاة غير أكيدة. ينقل الميت إلى القبر

---

(1) الشاعر الفرنسي Biron يمازح أهالي مقاطعة Bourgogne الواقعة إلى الشرق من فرنسا ومركزها ديجون. وموقع الجسر الحجري الذي يتحدث عنه بنديه قرب جسر القوارب الذي ظل قائماً في الموصل حتى تشييد الجسر الحديدي مكانه عام 1931.

بحيث قد يحدث أن يدفن شخص ما حيّاً، إذ يعتقد المسلمون أنَّ الجسد يتألم طالما لا يدفن[1].

لقد اختفى القاربان. لذا نعود ونحن ندخن الشيبوك، ونتحدث مع الأب دڤال الذي يتركنا للراحة على الطريقة الشرقية، فنرتاح من أتعابنا.

10 تشرين الأول (أكتوبر):

نقضي الصباح في تنظيم ملاحظاتنا. ثم نقوم بزيارة إلى الراهبات اللواتي لهن بيت قريب من بيت الآباء[2]. يريننا بيتهن بالتفصيل، منذ المستشفى وحتى غرف النوم والروضة ومدرسة الأطفال الصغار الذين يعلمونهم الحروف الفرنسية والحروف العربية في الوقت عينه. لا نكفّ عن الإعجاب بالصبر الذي يتربَّى بفضله هؤلاء الصغار. العديد من البنات يتركن الروضة مبكراً، لا سيَّما من المسلمات اللواتي كثيراً ما تتم خطوبتهن وهنَّ بعد في المدرسة، وقد يتزوجن في سن العاشرة. أمَّا البنون فيجتازون من مدرسة الراهبات إلى مدرسة الآباء حيث يكملون تعليمهم.

إذ ندخل الدير (الجماعة)، يدعونا الآباء بدورهم إلى زيارة مباهم الذي يتسع يوماً بعد يوم، ويستهوي كل عام أتباعاً جدداً.

---

(1) مبالغة أُخرى من الرحالة بشأن دفن الموتى.

(2) لقد كان بيت راهبات التقدمة قرب دير الآباء الدومنيكيين في محلة الساعة بالموصل منذ مجيئهن إلى العراق، وحتى تأسيس جمعية القديسة كاترينا للراهبات الدومنيكيات سنة 1929، وانتقال البيت العام لهؤلاء سنة 1954 إلى محلة موصل الجديدة. يفيدنا بنديه هنا بشأن مدارس الدومنيكيين والدومنيكيات ونشاطاتهم في الموصل. وقد سجل رحالتنا هنا انطباعاً عن البلد وأهاليه غير سليم، آثرنا حذفه.

إنَّهم لا يعلمون مع المسلمين، لأنَّ أمر هدايتهم محظور، نزور المدارس والمطبعة القائمة بشكل حسن. تطبع فيها الكتب الدينية بالأرمنية (الآرامية) والأسطرنجيلية والكلدانية والسريانية والعربية[1]. موظفو وعمال المطبعة من الشباب الذين تربّوا لدى الرهبان (الدومنيكيين). إنَّهم حسنو التصرف، لكنَّهم بطيئون، فهم لم يتركوا هذه العادة المتأصلة.

بعد الفراغ من الزيارة، نأتي إلى الديوان للاستراحة، فنلقى القنصل الإنكليزي قد جاء لردّ الزيارة والاعتذار لأنَّه لم يتمكن من تقديم احتراماته للمونسنيور ألتماير قبل سفره. يدعونا إلى الغداء يوم غد.

بعد الظهر، إذ ليس للآباء مدرسة، يعرضون علينا القيام بجولة حول الأسوار. نكلّف أحد الحمَّالين بحمل جهازنا الفوتوغرافي نمضي أولاً إلى التلغراف حيث نسحب من هناك منظراً عاماً للجسر الشهير وللمدينة.

كل القسم الخارجي للأسوار مخصّص، كما ذكرت أعلاه، للمقابر. إنَّه مكان ساحر في الربيع، بعد موسم الأمطار، لأنَّ هذا السهل القاحل الصحراوي، الذي قد يظن المرء بأنَّه لن يكون فيه سوى الرمال والأرض اليابسة، يكتظّ بالأعشاب والأزهار وكأنَّه جنينة، فيترك الأهالي المدينة لكي يخيِّموا في خيم تحيط بهم حيواناتهم. ومواقيت الخصب هذه التي تبدأ في شهر كانون الثاني، ليست طويلة المدى، لأنَّ الناس والحيوانات سرعان ما

(1) تأسست مطبعة الآباء الدومنيكيين في الموصل سنة 1858، وكانت حجرية في بادىء الأمر، ثم حديثة سنة 1860. وقد أخطأ بنديه مرة أخرى فقال (الأرمنية) وهو يقصد (الآرامية).

ينهبون العشب، وما تلبث الشمس أن تعطي الأرض مظهر الصحراء المخيّب.

عمر الأسوار نصف قرن تقريباً، إذ إنَّها شُيّدت أيام حكم الباشا أحمد[1]. نستكمل طريقنا، فنلاحظ مرقداً صغيراً أكثر أهمية، ترتفع أربعة أعمدة من حجر يعلوها سقف في الزوايا الأربع للضريح. أولاد كثيرون يلعبون في هذا المكان. إنَّه حيّهم العام.

هذا المرقد الواقع في الزاوية الشمالية الغربية قد شيّده الآباء (الدومنيكيون) لتكريم ذكرى مسلم غني كان قد تفهّم عمل المرسلين النافع فقدم لهم خدمات جليلة[2].

نلقانا أخيراً إزاء الواجهة الأخيرة، الجهة الشمالية التي كان يغمرها فرع من دجلة. أمام باب هذا الطرف تكثر الأكلاك القادمة من ديار بكر. الأب الفاضل دفّال، ناظر (رئيس) الرسالة (الدومنيكية) الذي يسكن بلاد ما بين النهرين منذ أكثر من ثلاثين سنة، يذكر أنَّه قد استعملها.

دجلة هو أشد الأنهر هوى. يغيّر مجراه كما يستبدل (دون

---

(1) المقصود أحمد الباشا الجليلي والي الموصل 1812 ـ 1817 ثم 1818 ـ 1822، وفي عهده قام القنصل البريطاني ريج بالتنقيب عن أسوار نينوى.

(2) إنَّه قبر سليمان آغا ابن يونس بن مصطفى بن يوسف ابن الملا محمد من آغوات محلة باب البيض بالموصل. ويحكي حفيده أمين آغا ابن عبد الله بن سليم بن داود أنَّ الخدمة التي قدَّمها جدهم للآباء الدومنيكيين مكَّنتهم من بناء الكنيسة وبرج الساعة وخفّفت البلبلة التي أثيرت حولهم بسبب استخدامهم عربات ذات عجلات لنقل مواد البناء وشكوك بعضهم حول قيام الآباء بأعمال ليست في صالح البلد، وقد كان لي أن أطلع قبل سنوات على وثائق ما تزال غير منشورة، جلّها رسائل وتقارير المرسلين.

جوان) عشيقاته. فإنَّ عام أمطار وفيضانات يحمله كيلومتراً عن المكان الذي اعتاد فيه مجراه وكان يظن أنَّه قد ثبت فيه بشكل نهائي. والموصل التي هي حالياً على الضفة اليمنى، لعلَّها كانت أيام تأسيسها على الضفة اليسرى، في موقع ضاحية نينوى[1].

نتأمل من أعلى باب الشمال المدينة والمنطقة الصحراوية المحتواة ضمن الأسوار والبيوت. بوسعنا القول إنَّها ساحة كبرى يلجأ إليها الرعيان وقبائل البدو محتمين ضد الغزاة في حالات غزو ما.

تمتدّ التحصينات بامتداد النهر عمودياً. وفي المنطقة التي تتصل به، ترتفع كهضبة كان مشيّداً فوقها قلعة مهيمنة على النهر كالرأس من الجسم مسافة خمسين متراً[2]. نمرُّ قرب قبر عجيب وقديم جداً. إنَّه من الطابوق المشوي. تحمل الواجهة الشمالية منه كتابة يبدو أنَّها بالغة الأهمية. لكنَّني مع الأسف لست قادراً على أن أحكم عليها، إلَّا أنَّ المسيو سيوفي قنصلنا، المتبحّر باللغة العربية، يقدِّرها حق التقدير، وقد بعث بطبعها إلى باريس. أمَّا من الناحية الفنية، فإنَّ هذا القبر غريب حقاً، إذ توجد من جميع أطراف الباب، أسفل الكتابة، مقطعان من طابوق طبيعي مسبوك، برسوم مذهلة، وخطوط عريضة عرض سنتمترين، موشاة بزمرد الخزف المطلي الأزرق بشفافية كبيرة خالصة تماماً[3].

---

(1) يبالغ الرحالة في وصف تغيّر مجرى دجلة، ولو أنَّه محقّ بعض الشيء كما يبان من آثار المهود التي تركها هذا النهر لكي يتخذ له مسالك غيرها.

(2) إنَّها قلعة باشطابيا (البرج الرئيسي) التي كان لها دور كبير في صدّ غزو طهماسب نادر شاه للموصل عام 1743. وينوّه بآثار دار الإمارة (قره سراي).

(3) إنَّه قبر ابن أو أبناء الأثير، وأشهرهم صاحب (الكامل في التاريخ) ويقع القبر قرب باب سنجار.

بينما كنَّا نتجوَّل، لاحظنا على الوجوه آثار بثور، أو خراجات، كأنَّها الدمامل، إنَّه مرض المراكز الكبيرة في هذه البلدان الحارَّة. يسمّونها، وفقاً للمدن التي يُصاب فيها المرء، حبَّة حلب، أو حبَّة ديار بكر، أو الموصل، أو بغداد. كنت قد رأيت في الجزائر مسامير بيسكره. ويبدو لي أنَّ لها بعض العلاقة مع هذه، فإنَّ هذه الحبوب ـ البثور المجهولة الأسباب، تظهر أولاً على شكل نقطة صغيرة حمراء، ثم ما تلبث أن تكبر حتى تغدو بحجم مسمار صلب، ثم تنفجر وتزول خلال عام، مخلّفة أثراً داكناً سيِّئاً. وقد جاء بغداد أطباء أوروبيون لدراستها خصيصاً، غير أنَّهم لم يحصلوا على نتيجة، بل جعلوها أشدّ حساسية، وغدت البثور أشدّ سماجة. لا نجد وجوداً لهذه الحبوب إلَّا في المدن ذات الشأن، فهي موجودة في الموصل، ولا تظهر البتة في قرية النبي يونس الصغيرة الواقعة في الأحوال الصحية عينها. ولا يخلو الناس النظاف والمعنيون بأنفسهم منها، بل حالهم كحال الذين يعيشون في قذارة مستمرة. وفي خط حلب وديار بكر والموصل وبغداد، لا تظهر في قرى صغيرة تتوسط هذه المواقع. بل ثمَّة واقع غريب، كونها تظهر في وجوه أهالي البلد، بينما بالنسبة للأجانب تظهر على الأذرع والأيدي. لكنَّها ليست قاعدة عامة. ولا يعرف أحد كيف يُصاب المرء بها. إذ يذكر أنَّ مسافرين أصيبوا بها مع أنَّهم لم يبقوا إلَّا بضعة أيام في إحدى هذه المدن المذكورة، بينما لم تظهر على آخرين سوى نقطة حمراء بعد عودتهم إلى بلادهم بعدة أشهر. كل المرسلين تقريباً مبتلون بها، فهي ضريبة يجب أن تُدفع. أحد هؤلاء السادة يتألم حالياً من إحدى هذه الحبوب التي أصابته في خدّه.

يميِّز الناس في بغداد نوعين منها: الحبَّة الذكر التي تجيء

وحدها، والحبَّة الأخت التي تتكاثر. والأخيرة من حجم أصغر، بل إنَّها فظيعة كالذكر. وقد ذكر لي أنَّ أحدهم أُبتلي بثلاثين منها. وأحد الدومنيكيين الذين عاشوا في الموصل ست سنوات لم يصب بها، لكنَّه بعد عودته إلى فرنسا بثلاث سنوات، أصيب بحبَّة مريبة في الصدغ. لقد كان فطناً فلم يحاول أن يوقف تطوّرها، فاختفت الحبَّة، إذ إنَّه من المعروف أنَّ كل من حاول معالجة هذا الداء، يحمل من جرَّائها آثاراً مروعة.

نعني بإعداد الكلك، أنَّ عدة آباء قد قاموا بقطع المسافة، لذا فهم يزودوننا بخبرتهم بقدر ما يتمكنون، نجَّار الدير (الجماعة) يهيىء لنا خيمة صغيرة من الخشب مفروشة بالقطن والأقمشة القطنية. ومدبِّر البيت يتكلَّف بشراء اللوازم. إنَّ الانحدار إلى بغداد يتطلب أربعة أو خمسة أيام في آذار أو في نيسان، عندما تكون المياه مرتفعة، ويستمر أحياناً عشرة إلى اثني عشر يوماً في هذه الفترة من السنة الأشدّ جفافاً. يلزمنا وقت أكثر من مدة عبور المحيطات للذهاب من هافر إلى نيويورك. فالنهر يسير في صحراء تامة، وبوسعنا أن نهلك جوعاً إذا لم نؤمِّن لأنفسنا كل شيء قبل السفر، فالضفاف الجرداء لا تزوّدنا حتى بالحطب الكافي للطهي.

مسيو سيوفي لم يرجع بعد، فنأسف لذلك جداً. إذ إنَّنا بواسطته كنَّا نتمنى أن نقدم أنفسنا إلى السلطات. الأب دڤال يعلم والي المدينة والولاية بأنَّنا سنزورهما غداً.

لدى عودتنا إلى غرفتنا نرى ثيابنا التي كان من طيب الراهبات أن يقمن بغسلها وترتيبها. إنَّها خدمة لا تثمَّن، لأنَّنا سنلقى في طهران فقط أمتعتنا، وفيها احتياطاتنا.

11 تشرين الأول (أكتوبر):

نمضي على فرس لزيارة السلطات، لأنَّ الذهاب مترجّلين دليل نقص لياقة وسبب إحراج. نقصد أولاً الوالي العام للمنطقة، تحسين باشا الذي يسكن خارج المدينة في المبنى الكبير المستخدم كثكنة، ومنه نشاهد بيت التلغراف.

نجتاز المدينة، يحمينا القوّاصون وخادمان يمسكان بجوادينا أثناء الزيارة. نخرج من باب لكش، فيبدأ ممشى طويل بعد منطقة المقابر، يقودنا إلى السراي، محاط بصفَّين من الأشجار، كلها مريضة أو ميتة، أما قرب القصر فلا يوجد أثر للنبات. لماذا زرعوا الكاليبتس والدردار والسنديان التي لا تقوى على التكيُّف على المناخ، ولم يزرعوا ممشى جميلاً من النخيل كان سينجح حتماً؟[1].

إذ نلج البوابة، يخرج رجال البريد مستعرضين الأسلحة احتراماً، البعض منهم أمام المدفع، والآخرون خلفه. نترك الجوادين في الفناء. ونصعد إلى الطابق الأول حيث يقدّم لنا بريدي آخر استعراض الشرف. يدخلوننا إلى صالون صغير فيه الوالي. يرتدي بزَّة أوروبية، وقامته حسنة. يتكلم الفرنسية، ويستقبلنا بكياسة، الصالون الصغير مطل على الواجهة المشرفة على النهر. ثمَّة منظر لطيف من خلال الشبابيك ذات الحدائد، يطلّ على الريف ودجلة والقرية. كلمات الباشا مفعمة، كما هي العادة دوماً، بمجاملات ووعود مفرطة في مبالغات لا يمكن أن

---

(1) مبالغة أُخرى لرحالتنا، فهو لا يدري بأنَّ النخيل لا تتحمل مناخ الموصل شتاءً. وموقع (السراي) معروف، قرب الجسر الحديدي، مطلّ على النهر.

تتحقق لو طُبقت فعلاً، ورغم ذلك فإنَّ الوالي يعدنا بأن يعطينا شرطة (جندرمة) للسفر.

يكثر على ضفاف دجلة أفراد يسلبون الأكلاك، وقد نهبوا عدة أكلات في الأيام الأخيرة، فمن غير الفطنة أن نمخر النهر دون حراس.

بعد زيارة ربع ساعة، واحتساء ما لا بدَّ منه من عصير وقهوة، نودع تحسين باشا[1]، شاكرين له حسن نواياه. نمرُّ بسلسلة من التحيات المسلحة ذاتها، ونغادر القصر للذهاب لدى حمدي بك والي المدينة[2]. الارتخاء واللامبالاة الشرقيان يريحانني بحيث إنِّي أترك الخادمين يقودان حصاني، ماسكين إيَّاه كلٌّ من جهته.

مسكن حمدي بك هو إلى جانب القنصلية الفرنسية. الاستقبال حميم بنوع أكبر. ليس ثمَّة جنود على الباب، لأنَّ الوالي في بيته، في مسكن صغير، بقميص غير مزرجر، وبنطلون من قماش أوروبي، يجلس على كرسي ديوان ماسكاً بيده رجله المكسوَّة بجورب. لدى دخولنا يترك رجله لكي يمدُّ إلينا يده. يحيط به بعض الأوروبيين، أحدهم مهندس نمساوي مكلَّف بإدارة طريق الموصل. سكرتيره الذي عاش سنة في باريس، لا يتذكر سوى حيّ بريدا، بولييه وشارع سان ميشيل[3]، فهو قد ركَّز هناك حماسه للمدينة الأولى في العالم.

---

(1) حاكم ولاية الموصل عهد ذاك تحسين باشا. فقد استعادت الموصل منذ سنة 1879 شأنها، فأصبحت ولاية لاسنجاق، كركوك والسليمانية، بالإضافة إلى سنجق المركز.

(2) والي المدينة يومذاك حمدي بك، ويقع مسكنه في المحلة المعروفة بالقلعة.

(3) أحياء وشوارع في مدينة باريس: Bréda, Bullier, Saine- Michel.

أما حمدي بك فلا يعرف باريس، وشوقه كبير في الذهاب إليها. هل الوصف الذي نقوم به والحكاية الخيالية لسكرتيره هما مبعث تجربته؟ يتكلم الفرنسية بنوع أفضل من رئيسه. وبما أنَّ الرسميات هنا أخف، يكون الحديث سلساً. إنَّه غير متزوج، وهذا الأمر هو علامة انحطاط كبير هنا. خلال لحظات قليلة يقدِّم لنا القهوة وسكائر محلية.

تستحق السكاير وصفاً خاصاً، فهي تعوّض عن الشيبوك في الاستقبالات، لأنَّها مريحة أكثر وأسهل من حيث التقديم، لكنَّه عمل كبير لتركي لكي يتعلم كيف يلفُّها. فثمَّة باعة موجودون في السوق، يصنعون أنابيب ورقية مخروطية قليلاً، يبيعونها فارغة، فتملأ في البيوت بتبغ جاف جداً، أشبه بالتراب (البودرة)، فتكون السيكارة. إلَّا أنَّ فيها ما يزعج، إذ ليس للتبغ ثبوت، بل ثمَّة خطر سقوط القسم المتأجج، بحيث يحرق الطنافس والأثاث، لكنَّهم يتخذون الحيطة بوضع إناء صغير من الجلد لكل مدخن لكي يضع فيه رماده.

نودّع حمدي بك، ونمضي لدى قنصل إنكلترا الذي ينتظرنا[1]. نصل نحو الظهر.

يقدِّم لنا الغداء في ديوان شبيه بديوان الآباء. نتحدَّث عن ندرة السائحين، فمنذ ست سنوات لم يأت إنكليزي واحد إلى الموصل. ثم يتحوَّل الحديث إلى الصيد، فالقنصل معجب جداً بذلك، ويأسف لأنَّه لا يلقى هنا رفيقاً يُطارد الجبال ويصطاد الخنزير والدب.

---

(1) قنصلية إنكلترا قرب محطة القطار حالياً.

الدبّ يخشى السكان جداً، وغالباً ما يهجم على الماشية، تدور حوله قصص غريبة جداً فيوماً ما، في قرية صغيرة، اختفت امرأة اختطفها دب، فبحث الزوج عن امرأته في كلّ مكان حتى يئس من الأمر، وأخيراً وجدها في مغارة الدب. رجاها أن تخرج، لكنَّها رفضت قائلة إنَّها قد لقيت رفيقاً أشدّ لطفاً من زوجها «فهو يحمل إليَّ العسل والثمار، ومساءً هو أحنّ بكثير، يلعس رجلي، يحتضنني، ولا يضربني قط!» غير أنَّ محمداً، (وهو اسم زوجها)، لم يكن له أن يتحمل هذه العلاقة، فقتل الدب، وأُعيدت المرأة إلى الدار الزوجية، وأصاب الزوج جلد غريمه.

نعود لدى الآباء نحو الساعة الثانية. إنَّهم قلقون لعدم عودة مسيو سيوفي، فقد ذهب حتى سنجار لكي يستقبل زوجته التي ستصل إلى دمشق عبر الصحراء، وتدمر (بالميرا)، والدير، والطريق هذه قاسية ومتعبة، فقد تمضي أيام ولا يعثرون على بئر، كما يحدث أن تهاجمهم عصابات أعراب.

لإشغال فترة ما بعد الظهر، نتجوَّل خارج المدينة، نحو الساعة الرابعة، ضفاف النهر مكتظة بالعوسج على بعد كيلومتر أو كيلومترين جنوبي الموصل، الدرَّاج موجود بكميات كبيرة. كل المساحة تُغطَّى بالمياه إبان الفيضانات، ربيعاً، لذا ينمو فيها بغزارة البطيخ من الحجم الكبير، والقرع، والرقي، وهذا أساس غذاء السكان. والمزارعون الذين يزرعون هذه الخضراوات يخيِّمون وسطها لحمايتها من السلب، وهم مسلحون، وقد يطلقون النار دون تأنيب ضمير ضدّ أول من يدنو منها.

ودجلة مملوء بالأسماك، ومن جملة أنواع السمك، أنواع ممتازة، أكبر أنواع السمك حتى بغداد، هو سمك طوبيا[1]، حجمه متر ونصف طولاً، وقطره من 20 إلى ثلاثين سنتمتراً. أما بعد بغداد، فإنَّا نلقى القروش، لذا فمن الخطورة السباحة دون اتخاذ احتياطات، لقد شوهدت قروش تصعد في الكارون، أحد روافد دجلة، حتى شوستر.

وعلى ضفاف دجلة، على بعد بضعة فراسخ من الموصل، تنبع عيون كبريتية تنشر رائحة كريهة وتشوّه مذاق المياه. وبفضل هذه العيون يصلح النهر في عدَّة مناطق لشفاء أمراض الدم الخطرة المنتشرة في ديار العرب، ويحتاج المرض إلى علاجات جدية. وثمَّة عدَّة منابع قار ونفط في جبال الغرب، وكذلك في جبل سنجار وجبل محلبية في الشرق، لكنَّها ليست مستغلة.

بعد أن استرحنا بضع دقائق، عُدنا من الباب الغربي. قوافل كبيرة من الجمال يحرسها رجل واحد تخيّم خارج المدينة، قابعة على قوائمها الأربع المطوية تحتها، شبيهة باللقالق الجاثمة على بحيرة. وهذه الحيوانات تجترّ بهدوء. إنَّها صور حية للطف والصبر.

قرب قبر حديث العهد، تنوح باكيات ويتنهدن مولولات. وحين تشاء نساء الميت عدم تحميل أنفسهن هذا العبء، يدفعن لعدّادات مبلغاً، فيقمن بالنواح بحسب الساعات المتفق عليها، مطنبات بخصال المتوفى. هذه التمثيلية الصغيرة، أياً كان يوم الوفاة، تستمر حتى الجمعة لأنَّ الله يفتح أبواب السَّماء للميت يوم

(1) نسبة إلى طوبيا، كما في العهد القديم، سفر طوبيا، الفصل السادس، العدد 2، وهو (الحوت).

الجمعة، بحسب الاعتقاد، لذا فهو خير عميم أن يموت المرء يوم الخميس، وقد يتم تقريب وفاة المريض أحياناً لهذا الغرض.

لدى عودتنا إلى الدير (الجماعة)، نلقي مؤجر الجياد الذي جاءنا به المدبِّر. إنَّه سيقودنا إلى نينوى وخورسباد، نودّ السفر الساعة السادسة صباحاً، الثانية عشرة بحسب التوقيت التركي، أي مع طلوع الشمس.

12 تشرين الأول (أكتوبر):

الجياد جاهزة في الساعة المعينة، طعامنا موضوع في خرجين يحملهما حصان الدليل، نجتاز المدينة وهي هادئة جداً في الصباح كما في النهار. ثم يستيقظ السوق، ويفتح الباعة دكاكينهم، وتنظِّف المقاعد، وعليها بعض الرواد، نصل الجسر، الازدحام فيه كبير، لا سيَّما في الساعات الأولى من النهار، لأنَّ المدينة مغلقة ليلاً، كذا الازدحام شديد، بحيث إنَّنا نضطر على الدخول والخروج بانتظام لتجنُّب المحاذير التي قد تقود بلا شك إلى صدمات للحيوانات المحمَّلة بالصناديق الضخمة. ثمَّة مقهى كبير في أعلى الباب، يرتاح فيه بكسل ولا مبالاة رواد هادئون يدخنون متفلسفين، محتقرين صخب الجماهير[1]. ونحن مضطرون أن ننتظر لكي يمرُّ الموج الوافد من الاتجاه المضاد. الحيوانات تتبلبل، والجمال بنظراتها الثاقبة تحركها صراخات الناس، فتدفع الحمير بمجموعها دون أن تراها، على الجميع أن يتدافعوا لدى العبور، ومن لا يتمكَّن من دفع الرسوم، يترك منديلاً أو عقالاً أو

---

(1) لقد كان هذا المقهى قائماً إلى سنوات قليلة مضت، ويعرف بمقهى (الثوب) عند باب الجسر القديم.

قميصاً أو رزمة له، يحتفظ بها كرهان، وقد يباع الغرض مساءً بالمزاد إذا لم يأت صاحبه ويسدّد ما عليه من ضريبة.

إنَّ قنصل إنكلترا، بحجَّة أن يرينا تل قوينجق، يعيرنا قواصه، إنَّما غايته الحقيقية الاطلاع على ما نفعل، فالإنكليز يعزون إلى أنفسهم كل المجد بالنسبة للاكتشافات التي تمَّت في نينوى وعلى مجاري دجلة. غير أنَّهم، رغم قيامهم بأعمال كبيرة بهمة لايارد ولوفتس، وإبرازهم إلى حيّز النُّور بقايا دفينة لمدن عظيمة، فإنَّ بوتا الفرنسي هو حقاً أول من اكتشفها وأظهرها[1].

فسنة 1842، إذ كان بوتا عائداً يوماً من فارس، ومارّاً بالموصل، استحثه طابوق أراه إيَّاه الأهالي، ومصدره هضبة واقعة على الضفة الأُخرى من دجلة، أن يسأل الحكومة الفرنسية لكي تخصّص له موقعاً كقنصل لفرنسا، لكي يعمل في الحفريات. وقد

---

(1) بشأن التنقيبات في نينوى والمدن الآشورية الأُخرى والمواقع الأثرية في شمال العراق، انظر: د. محمود الأمين، استكشافات أثرية جديدة في شمال العراق، مجلة سومر، المجلد 4 (1948)، ود. فوزي رشيد، حلُّ رموز الخط المسماري، مجلة بين النهرين، السنة 1، العدد 4 (1973)، وعلوم البابليين لروثن، الفصل الثاني والخ، وبشأن الآثاريين والمنقبين المذكورين هنا:
E. H. Layard أوستن هنري لايارد (1817 ـ 1894) آثاري ودبلوماسي إنكليزي، قام بالتنقيبات في نينوى ونمرود وآشور وبابل وكيش في السنوات 1845 ـ 1851.
Sir. W. K. Loftus السر وليم كنت لوفتس، آثاري إنكليزي نقّب في سوسة سنة 1851، واستكشف القسم الجنوبي من بلاد بابل ولارسا، وأرسله رولنصون إلى نينوى ونمرود لاستكمال الحفريات.
P. E. Botta بول أميل بوتا (1802 ـ 1870) اكتشف خورسباد ونقّب فيها أيام كان قنصل فرنسا في الموصل، ويُعتبر أول من ابتدأ بالتنقيبات في تل قوينجق (نينوى) وذلك منذ سنة 1842.

تمَّ فعلاً إنشاء المنصب، وبوشر بالحفريات، لكنَّها لم تعط نتائج كبيرة.

ولما عرف سكان قرية خورسباد بأنَّ فرنسياً يبحث عن الطابوق، حملوا إليه طابوقاً، مدعين أنَّه بوسعهم إيجاد كميات أكبر في حقولهم، فتحوَّل بوتا إلى هناك، ولقي في خورسباد آثاراً أشد وضوحاً ممَّا في قوينجق[1]، وإذ لم تكن لديه مبالغ كافية للعمل في الموضعين معاً، أهمل تل قوينجق، وابتدأ العمل في الموقع الجديد.

ولما كانت قرية خورسباد الصغيرة تقع فوق الأطلال، غيَّر (بوتا) مكانها، إذ شيد على نفقته الخاصة قرية في السهل، حيث هي الآن. وابتدأت الحفريات.

وقد أكمل بلاس، خلف بوتا، هذا العمل بشكل ممتاز[2].

إنَّ خرائب قصر سرجون هي التي رأت النُّور بالشكل الأكمل وبالعناية الأتم، وذلك بنوع أفضل من جميع أطلال بلاد ما بين النهرين. فقد كان القصر منفياً، وأشغلت مساحة الحفريات نحو عشرة هكتارات. من هذا القصر جاءتنا الثيران المجنّحة ذات الرؤوس البشرية الموجودة حالياً في اللوفر. وثمَّة قطع أُخرى عجيبة كانت مخصصة لمتاحفنا لم يتمكنوا من إيصالها، إذ إنَّها

---

(1) نينوى هي المدينة الثالثة للآشوريين بعد آشور ونمرود، ومن أهمّ معالمها القصور والمعابد المكتشفة في تل قوينجق والأسوار والأبواب، وتل النبي يونس يحتضن آثاراً مهمة، أما خورسباد، أو خورساباد، فهي دور شروكين العاصمة الرابعة بناها سرجون الثاني، وقد كشف فيها عن القصر والمعابد والبرج المدرج أي الزقورة.

(2) Victor Place فكتور بلاس (1818 ـ 1875) قنصل فرنسي، نقب في خورسباد في السنوات 1852 ـ 1854.

حملت بصعوبة إلى دجلة، إلَّا أنَّ العديد منها ابتلعها النهر. وقد اكتشف بلاس أيضاً كتل حدائد، وبقايا أسلحة، وأدوات وآلات حديدية من شتى الأنواع[1].

لنعد إلى نينوى وإلى زيارتنا. على الرغم من أنَّ جزءاً ضئيلاً فقط من التل تمَّ تنقيبه بشكل جدي، وأنَّ ثمَّة تلولاً كثيرة أُخرى تنتظر دورها لكي تبرز للعيان وتكشف عن بعض أسرار الأمبراطورية العظيمة المتوارية. فإنَّ الأوامر تمنع، بقرارات حكومة لا تبحث عن اكتشاف الثروات لنفسها، وتمنع الآخرين من التنقيب، فالباب العالي يرفض كموقف، الفرمان الضروري لاستئناف الحفريات. وإذا ما منحه من باب الصدف، فبالشرط الوحيد أنَّ أي عمل فنيّ مكتشف يعود إليه، وكمكافأة عن الأتعاب، لا يسع العلماء والباحثون الدؤوبون سوى الحصول على خرائط وبعض التخطيطات والرسوم والصور الفوتوغرافية، لذا نراهم ييأسون ويتركون العمل. ومع ذلك، فإنَّ الإنكليز، لكي لا يفقدوا حقوقهم في تل نينوى، أقاموا في الموضع كوخاً ذا ستة أقدام مربعة من التراب المسحوق، بدون سقف، يضم بعض أكوام أدوات وطابوق، ملقاة كالنفايات في إحدى الزوايا، يطلقون عليها بتفخيم: المتحف البريطاني.

لا أهمية كبيرة لما اكتشف حتى الآن، من وجهة نظر تاريخية. وحتى من وجهة نظر الاكتشافات عينها، فإنَّها ستكون أغنى لو أنَّ

---

(1) يحيلنا الرحالة إلى هذه الكتب للمراجعة بشأن التنقيبات في نينوى وخورسباد:
Parrot et Chipiez, Histoire de l'art dans l'antiquité; Place, Ninive, Beulé, Fouilles et découvertes.

علماءنا عرفوا قراءة الكتابات العديدة بشكل أكيد، فهي تغطي الجدران والمنحوتات، وما يظنون بأنَّهم قد فهموه، ما يزال قابلاً للجدل، على الرغم من الكتابات ذات اللغات الثلاث المكتشفة في وان وبيستون[1].

فإنَّها قد ساعدتهم كثيراً. وثمَّة كتابات أُخرى عديدة بأحرف مسمارية ما تزال غير مشخصة.

لقد كانت الغرف الداخلية لهذه القصور مكسوّة من جميع الأطراف بصفائح مرمرية منحوتة تمثل معارك أو مشاهد صيد حيوانات وأسماك، ودجلة بأسماكه، وواحات مليئة بالنخيل، وفي الغالب كتابات طويلة على المنحوت عينه. وثمَّة آثار العنقاء، والأسود، والثيران المجنحة الهائلة، فوقها جميعاً حروف منحوتة تبدو أنَّها تحكي وقائع تاريخية مهمة. ويبدو الطابوق المشويّ الذي نلقاه مستخدماً للألواح والكتب، لا كمادة بناء.

نمتطي الجياد بعد نحو ساعتين، ونغادر إلى خورسباد، مقتفين مجرى غدير صغير. الريف مزروع، ولا نتبيَّن حقول الحنطة والشعير والحبوب إلَّا من خلال سيقان تنمو بعد الحصاد. نصادف بعض حقول قطن من نوع ضعيف، إلى جانب حقول خشخاش وأفيون. بيوت الفلاحين هي حقاً قلاع صغيرة مربعة الشكل، عرضها أربعة

---

(1) وان Van مدينة معروفة واقعة على البحيرة التي تُعرف باسمها، في تركيا الشرقية. أما (بيستون)، ويكتبها بنديه Bisoutoun فتقع بين كرمنشاه وهمدان، وقد عثر هناك على حجر يحمل كتابة ذات خطوط ثلاثة بالمسمارية، وباللغات الرسمية الثلاث التي كانت مستخدمة عهد ذاك في فارس وهي الفارسية الأخمينية، والعيلامية الحديثة، والبابلية، وقد كانت الأخيرة لغة الشرق الدبلوماسية يومذاك (انظر: علوم البابليين، تأليف مارگريت روثن، ترجمة د. يوسف حبي، ص24).

أمتار وعلوّها كذلك. ما عدا الباب، الفتحات الوحيدة كوى صغيرة أشبه بفرساي لويس الرابع عشر الآشورية[1]، إنّه مطمور مرة أُخرى.

لدى حفري طرف ثقب، أزالت كميات كبيرة من التراب كانت تغطي حائط طابوق منقوش. الرسم المتكرر مراراً، كان شريطاً زخرفياً، يمثل الموضوع عينه على مجموع طابوقات ثمان. قضيت ساعتين في الكشف عن هذا الأثر بسكّين الصيد، وقد كانت الحرارة فظيعة، والهواء ناقصاً في هذه الحفرة، لذا كان تعبي كبيراً جداً. كلّفت أحد الفلاحين بحمل نتيجة عملي المضني إلى الموصل، ووعدته بمكافأة كبيرة إذا ما وصل كل شيء إليّ بحال جيدة.

نعاود السير، فنمرُّ بالقرب من جبل صغير. باتجاه الموصل بوشر بشيء طفيف من حفريات أبانت رأس ثور مجنح ضخم، ثم توقفت الأعمال بحجَّة أنَّ هذا الأثر، الشبيه جداً بسوابقه، لن يحمل شيئاً جديداً بالنسبة للعلم. غير أنَّ هذه المجنَّحات الضخمة تحمل دوماً في المساحة المستوية، أي في الفراغ الذي بين السيقان، ألواحاً مكسوّة بالكتابات.

من أعلى الهضبة التي نحن عليها، نشاهد في عين الاتجاه (اتجاه الموصل)، هضبات شبيهة الشكل والحجم، من المحتمل أنَّ أيّاً منها يحمل حيواناً مماثلاً استخدم سابقاً كفاصل ميداني أو مؤشر للطريق.

الطريق الذي نسلكه للعودة، ليس الطريق الذي اتبعناه في ذهابنا، نمرُّ بقرية (بيبو) بحيث نشاهد مائدة صغيرة على شكل مثلث غريب الشكل، فهو مقطوع من كتلة حجرية واحدة. المنضدة

---

(1) Versailles على بعد 23 كم جنوب غربي باريس. قصر منيف وحدائق غنَّاء، عزّز مجدها أكثر من ملك، أشهرهم لويس الرابع عشر. وفرساي اليوم متاحف وقاعات استقبالات كبرى.

دائرية، قطرها ثمانون سنتمتراً، وسمكها نحو ستة سنتمترات، عليها كتابة مسمارية، ورجلها التي تكوّن جسماً واحداً معها، بشكل منشور ممتلىء مثلث ذي حراشف قليلة الحفر متجهة إلى الأعلى، تمثل مخالب أسد ذي أربع أصابع، على علوّ عشرين سنتمتراً من القاعدة.

نقضي وقتاً طويلاً على الفرس حتى نبلغ رباط التلول التي تغطي أسوار نينوى، ثم ندخل الموصل.

الأطلال محفوظة، لحسن الحظ، دون أن يلحق بها الضرر، تحت التراب الطيني الذي يغطيها ويضمن بقاءها ضد تقلبات المناخ. وربَّما يثير في طريقة تشييد تلك القصور، ما يبان وكأنَّ لا وجود للأسس فيها. فقد كانوا يبدأون البناء برفع قاعدة عظيمة من الطابوق والحجارة فوق الأرض بعلوّ مترين أو ثلاثة، ثم يُقام البنيان فوقها. وتبدو قاعدة القصر في الحفريات التي تمَّت في خورسباد أنَّها أعلى بكثير، إذ كانت تبلغ حسب بلاس علوّ الأسوار، وتبلغ هذه وفقاً لقياساته نحو ثمانية عشر متراً. بينما يبلغ عرضها في القاعدة أربعة وعشرين متراً. وهذا ما يشرح كيف أن ديودور الصقلي يروي بأنَّ عربات عديدة كانت تطارد على الواجهة في أعلى الأسوار[1] فإنَّا نلاحظ آثار ذلك هنا.

يجب أن تكون الغرف عالية، ومن جميع الأطراف في الداخل ألواح من المرمر مثبتة على طول الجدران المبنية من الطابوق المجفف بالشمس (اللِّبِنُ). ونادراً ما تكون هذه الألواح أعلى من أربعة أمتار، وجد منها في النمرود بعلو ثلاثة أمتار، بينما ارتفاع

(1) ديودور الصقلي 2: 7. وانظر هيرودوت، الكتاب الأول، 179. وراجع سفر التكوين 11: 3. (الرحالة)

الأسود والثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية التي كانت تشكل مداخل الأبواب، يبلغ خمسة أمتار ونيفاً، ولم تكن هذه الحيوانات لتبلغ سقف الغرفة، بل إنَّ الحائط يزيد متراً آخر، وكان القسم الأخير مشيَّداً بالطابوق المشوي المنقوش، ممثلة فيه أشكالاً أو زخارف غنية، أو إنَّها كانت من طابوق بسيط مجفّف في الشمس (أي من اللبن) ومطلي بطبقة خفيفة من الملاط (البياض) المصبوغ كذلك، كما يمكن ملاحظته من البياض الساقط الذي حافظ التراب عليه(1).

لقد أكد لايارد منذ زمن طويل بأنَّ سطوح الغرف لا يمكن أن تكون إلَّا من أخشاب (مدود) كانت تنشر عليها طبقة من تراب مسحوق. وكان يدعم رأيه هذا بعرض الغرف القليل، كما وأنَّه لم يعثر في الأنقاض على بقايا عقد (قبب). أما بلاس، ومساعده فلاندن فكانا يبرهنان على العكس بأنَّ الآشوريين استخدموا العقدة كثيراً، وعليها كانوا يسندون السطوح التي تشكّل السقوف، وقد كانت هذه العقد من التراب المسحوق المخلوط ربَّما بالأغصان، وكان سمكها كبيراً لكي تحمي من الحرارة بمقدار أكبر. ولعلَّ الطابوق المشوي كان يشكّل القسم الداخلي منها. وليس لنا إيضاح هذه النقطة، لأنَّ ما بقي من الحيطان لا يصل، ما عدا في باب خورسباد، إلى قاعدة القوس. وحين هجرت القصور، أو خربت بالحريق الذي أشعله الغزاة، تهدّمت العقد، ومعها القسم من الحيطان المشيّد بالطابوق المشوي الذي فوق القطع المنحوتة، وهذا التهدم الذي دفن المنحوتات بشكل كامل، هو الذي ضمن

---

(1) يذكر الرحالة المراجع التالية:
Place, Ninive et l'Assyri; Botta, Monument de Ninive; Perrot et Chipiez, Histoire de l'art dans l'antiquité.

لها الحفاظ، إذ لم يكن في الإمكان إطلاقاً الحفاظ على هذه المنحوتات لو أنَّها ظلت زماناً طويلاً معرَّضة للهواء، أو فيما لو كان تجمّع التراب والرمال قد سبب لها الدفن بشكل تدريجي[1].

ويمكن تعليل سمك السطح بندرة الحجارة، وخاصة لحاجتهم للاحتراز من الحرارة. إذ يبدو أنَّ كل شيء قد دبّر لحماية النفس ضد مناخ قاس. فالغرف عالية وطويلة، وكأنَّها ممرات كبيرة، يتلاعب الهواء فيها بسهولة، والحيطان سميكة بدون شبابيك أو بفتحات صغيرة مشرعة على أفنية كان لها سقف دائري يحمي البرج فهو أشبه بالرواق.

في كل قصر فناء كبير رئيس كانت تجري فيه الاجتماعات والاحتفالات الكبيرة. ويحمل هذا الفناء آثار القليل من المنحوتات. لقد كانت محمية في المناسبات الكبيرة بستارات (جوادر) واسعة، فثمَّة ما يشبه الحيوانات البرونزية[2] مثبتة في الأوتدة، تحمل على ظهورها حلقات، ممَّا يبدو أنَّها صُنعت لتعليق الحبال والسلاسل.

لقد كانت هذه القصور معالم وطنية عليها ثقل يوميات الأمبراطورية، كما تمثّل الأحداث المجيدة نحتاً. فمن كان يدخل إليها، كان يقرأ تاريخ الأُمَّة، إذ كانت الموضوعات المنحوتة تؤشر

---

(1) ملاحظات ذكية يقدمها بنديه بشأن السقوف وحفظ الآثار بفضل تجمع التراب والرمال والكثبان. وقد أبانت حفريات السنوات الأخيرة والصيانة في النمرود بأنَّ الآشوريين كانوا يستخدمون ما يشبه العقدة لسقوف طويلة وقصيفة، يشيدونها بالطابوق المشوي، لا بالمدود الخشبية.

(2) لقد عثر في الغرف على مجاميع حيوانات مماثلة، بكميات كبيرة وأحجام مختلفة، يحتفظ بها كأوزان، وقد قام لايارد بتصنيفها .(الرحالة)

إلى التفاصيل بشكل أشد حيوية، فكانت هكذا نصب أعين الملوك على الدوام الأحداث الكبرى لأجدادهم، ولتكريم الآلهة.

يبدو أنَّ المدخل الرئيس لقصر قوينجق كان الجانب الشرقي المعاكس للنهر، ففيه كانت الثيران الكبيرة الحاملة يوميات سنحاريب الذي إليه ينسب قيام هذا البناء العظيم. وسنحاريب هو ابن الملك الذي شيَّد خورسباد، واسمه على الكتابات التي تعلو الثيران في القسم الجنوبي الغربي من نمرود، وعلى العديد من كتابات الطابوق، وعلى آثار أُخرى من هذه الأطلال، كما في خرائب خورسباد.

لقد كان المعلوم بأنَّ ملك خورسباد يدعى سرجون قبل أن تثبت قرابته مع نينوى. ويدَّعي رولنصون[1] بأنَّ هذا الملك كان يحمل أيضاً اسم شلمنصر الذي نعرف عن اليهود في عهده، ويبدو بأنَّ كتابات خورسباد تساوي ما بين شلمنصر وسرجون[2]. وفي أيام الفتح العربي، كان موقع خرائب خورسباد يعرف باسم تل سرجون.

لأوَّل مرة في اصطخر، عام 1602، لاحظ بيترو ديلا فالي[3]

---

(1) Sir, H. K. Rawlinson السر هنري كريسوك رولنصون (1810 ـ 1895) آثاري إنكليزي، يُعتبر أب الدراسات الآشورية، أشرف على التنقيبات في بابل وآشور في السنوات 1842 ـ 1855، وكتب عدَّة بحوث.

(2) كنا لدى قراءة الكتابات التي تصاحب بعض أشكال (رسوم وتماثيل) الملوك والآلهة، ننساق وراء إعطاء قيمة رمزية اعتباطية لأحرف مستعملة كشعارات وألقاب، بينما كان لها قيمة مختلفة تماماً، كحروف أبجدية، وهذا ما يشرح سبب اختلاف وجهات النظر .(الرحالة)

(3) Pietro Della Valle بيترو ديلا فالي (1586 ـ 1652) رحالة إيطالي ضليع بعدَّة لغات شرقية، ترك رحلة بالإيطالية فيها معلومات نفيسة عن بلاد الشرق والعراق.

الأشكال المسمارية، وبعده شاردن[1] لكنَّها بقيت غير مشخَّصة حتى سنة 1800. وقد شاء هاگر[2] أن يرى فيها أشكالاً رمزية، وسانده في هذا الرأي وجود رموز شبيهة بها في الهيروغليفية المصرية. حتى اهتدى گروتفند[3]، عام 1802، إلى النظرية الصحيحة للألفباء، وجاءت كتابات بيستون[4] التي اكتشفها رولنصون لكي تكمل هذه التصريحات وتعززها، إذ إنَّها قدَّمت لنا ثلاثة نصوص وثلاث لغات مختلفة جنباً إلى جنب.

ثمَّة نوعان من الألفباء المسمارية مختلفان تماماً. الألفباء الآشورية المختلطة برموز صوتية وتصويرية، وهو ما نلقاه في نينوى، وخورسباد، ونمرود، وبابل، ثم الألفباء الإيرانية المكتشفة في بيرسيبوليس المكوّنة رموزها من عناصر شبيهة بالسابقة، غير أنَّه لا علاقة لها معها. وبوسعنا أن نقسّم الألفباء إلى قسمين: البابلي القديم، والبابلي الآشوري[5].

إنَّنا نلقى البابلية القديمة على طابوق وإسطوانات وألواح متأتية من أطلال بابل وأطرافها. أما البابلية الآشورية ففي كتابات برسيبوليس وبيستون الثلاثية.

---

(1) Jean Chardin جان شاردن (1643 ـ 1713) رحَّالة فرنسي زار بلاد الشرق وكتب مذكراته بعنوان: رحلة إلى فارس والهند الشرقية، سنة 1711.

(2) Hager

(3) Grotefend گروتفند، عالم ألماني، ولد سنة 1775، وعمل على حلّ رموز الخط المسماري.

(4) بشأن كتابات رولنصون، راجع الهامش (1) ص 133.

(5) بل تقسم الآكدية إلى البابلية والآشورية وقال بنديه خطأ: البابلي الاخميني.

والبابلية القديمة هي ذات تنوع أشدّ استغلاقاً، إذ يبدو أنَّ من كان يستخدمها يتعمد تعقيد الأشكال البسيطة التي كانت للآشوريين. فنحن إذ نقارن أولاً الحروف عينها في الآشورية والبابلية، نلاحظ بأنَّ اختلافاتها متأتية عادة من طريقة صياغة العنصر على شكل مسماري رمزي، بحيث إنَّ تصبح ، والحرف الآشوري هو عينه ، وهذا رمز متكرر في البابلية مراراً.

ومن المحتمل أن تكون الصيغة الأولى للحروف ذات خطوط بسيطة، كما تثبت ذلك كتابة عثر عليها لايارد في نمرود، على جدار القصر الجنوبي الغربي.

فإذا استعضنا عن الخطوط بالمسامير، أي برأس السهم (النبلة) أو العلامات الفاصلة، فإنَّ الرموز سوف تشبه رموز المواقع الآشورية الأولى. بينما هناك خطوط على طابوق بابل بدلاً من الإشارات. هكذا فإنَّ هي بدلاً من أو من لتمثيل الأحرف الآشورية المذكورة أعلاه.

وقد اتخذ الرمز أحياناً شكل المطرقة.

ويبدو أن الشكل المثلث الزوايا للعلامة الفاصلة قد تمَّ استخدامه لأنَّه يعطي انطباعاً طبيعياً عن زاوية منقوشة فوق مادة رخوة. ويبدو بأنَّ هذا الشكل كان مقدَّساً، فهو قد مثّل كشعار

ديني فوق مذبح[1]. وثمَّة نوع آخر من الكتابة، هي الكتابة المائلة أو المقدَّسة (الكهنوتية)، المستخدمة عادة في الاستعمالات اليومية، كما في المستندات الخاصة، أو في الوقائع ذات الأهمية البسيطة. لقد كانت هذه الكتابات تستخدم دونما شك على الورق، وقطع الجلد، وكان يتمّ خطّها بالقصب. إنَّها تشبه كتابة الفينقيين، والتدمريين، واليهود، وتكتب من اليمين إلى اليسار، بعكس الكتابة المسمارية. لكنَّنا لندع هذه الكتابة الجارية الاستعمال، ولنعد إلى الأولى فهي أهمّ من حيث الناحية التاريخية، أعني بها الكتابة المسمارية.

إنَّ گروتفند، بعد بحوث مستفيضة، توصَّل إلى تحديد المحاور التالية بالنسبة إلى الكتابة المسمارية: ليست حروف برسيبوليس رموزاً تشرح الأفكار، إنَّما هي أحرف ألفبائية، أي إنَّها ليست حروفاً مقطعية. وهذه الألفباء تضمُّ هنا أربعين إشارة تشمل أيضاً حروف العلَّة الطويلة والقصيرة. يدعم هذا الرأي مقارنة ذلك بلغة الزند[2]، وينبغي قراءة هذه الكتابة من اليسار إلى اليمين. وهو يؤكّد بأنَّ كتابات برسيبوليس مكتوبة بالزندية، وترجع إلى عهد كورش والإسكندر[3]. سيطول بنا الأمر لو شئنا هنا إعطاء كل السياق الذي

---

(1) هذا الرسم الغريب موجود حالياً في باريس، في المكتبة الوطنية، وهو محفور على حجر تسمى (مسمار ميشو Caillou de Micahaud). (الرحالة)

(2) Zend الزند، التسمية التي استُعملت في القرن التاسع العشر للدلالة على اللغة الهندو ـ أوروبية التي كُتبت بها النصوص المقدَّسة للآفيستا.

(3) كورش ملك فارس (558 ـ 528ق.م)، يلقب بالكبير، ابن قمبيز، أخذ الحكم من الميديين، أما كورش الصغير (424 ـ 401ق.م) فقد هلك في الواقعة التي أراد فيها السيطرة على أخيه أحشورش. والإسكندر هو المقدوني ويلقب بالكبير (356 ـ 323ق.م)، بعد أن أخضع بلاد اليونان، تغلب على داريوس الثالث في عدَّة مواقع، أشهرها معركة أربيلا (كوكاميلا) عام 331ق.م، ومات في بابل.

سلكه گروتفند. غير أنَّه من السهل أن أوجزه بكلمات قليلة. فإنَّ گروتفند افترض أولاً بأنَّ الكتابات التي ترافق أشكال الملوك إنَّما تذكر أسماءهم وألقابهم، فامتحنها اسماً اسماً، وحرفاً حرفاً، وقارن افتراضاته مع أحداث التاريخ، فلقي تسلسلاً مقبولاً في النسب لأسماء الأعلام. وافترض بأنَّ الأسماء التي تقدّمها الكتابات هي أسماء السلالة الاخمينية، فقارن هذه الأسماء، مع عودة إلى الوراء، بالأسماء التي كان هيرودوت قد ذكرها ابتداءً بكورش[1]. وبما أنَّ الأسماء الأولى تبدأ بأحرف مختلفة، مع أنَّها ذات طول واحد، فهما كورش وقمبيز، وكورش وأحشورش[2] وكان التسلسل المتتالي ممكناً، فوجد حينذاك بأنَّ الاسم الأول للكتابة مكوَّن من ثمانية أحرف، وقارن ذلك بالاسم العبري لداريوش أو داريوس[3].

وأعطى لهذه الحروف قيمة افتراضية.

D A R H E A U SCH

وبدا له بأنَّ اسم أحشورش Xerxes هو في المقدمة، لذا فهو مكوَّن من الأحرف التالية:

---

(1) هيرودوت أو هيرودوتس (484 ـ 420ق.م) مؤرخ ورحالة يوناني معروف.

(2) كتب هذا الاسم بعدَّة الأشكال، فهو بالفارسية Kshajarsha وباليونانية Artaxerzes وباللاتينية Assuerus عن العبرية، وبالعربية (أحشورش) أو أرتحشّا. انظر الهامشين (3) من ص136 والهامش (3) من هذه الصفحة.

(3) داريوس أو داريوش الأول ملك فارس (توفي سنة 486ق.م)، والثاني (ت 404ق.م) ابن أحشورش الأول. والثالث، هو الذي انتصر عليه الإسكندر الكبير، وقمبيز الثاني ابن كورش الكبير (528 ـ 521ق.م).

<<II ≂ I<= ⫪ ≡I ⫪ \

KH SCH H A R A

وتمَّ هكذا تحديد قيمة الأحرف.

وبحث في الجملة الثانية عن كلمة بوسعها أن تدلّل على مفهوم الملك، فكانت أحرف هذه الكلمة هي KHSCHAH وقارنها بالزندية المحكية سابقاً في البلد.

<<II ≂ ⫪ I<- I<I ⫪ I<-

KH SCH A H I O H

ثم افترض بأنَّ الكلمة التي تسبق لفظة الملك هي لقب تكريمي، فقارن عندئذٍ أحرف \ I≡ ≡I I--I ≡I- اللفظة بأحرف لفظة داريوس، ووضع تحت هذه الرموز EGHRE.

ويمقارنتها بالزندية، رأى بأنَّ لفظة (أيكري EGHRE) تعني الكبير. واستخدم هذه الطريقة، ففكّ هكذا، رويداً رويداً، الألفباء، بفضل الكلمات المعروفة والأحرف المكتشفة سابقاً.

لم يكن اكتشاف (گروتفند) في الحقيقة سوى فرضية، أعطتها اشتغالات (بورنوف)[1] عام 1836 أسساً أشدّ رسوخاً.

وكان الكولونيل (رولنصون)، من البعثة الإنكليزية في فارس، يجهل أعمال (يورنوف) في فرنسا، و(لاسن) في ألمانيا[2]، لكنَّه

---

(1) Bournouf عالم فرنسي.

(2) Lassen عالم ألماني.

اكتشف كتابات بيستون، وتوصل بأسلوب گروتفند عينه إلى ألفباء مساوية لألفباء (لاسن)، مع فارق حرف أو حرفين.

ثم كان يجب البحث عن وسيلة لاكتشاف سرّ اليوميات الآشورية. فإنَّ الكتابات الفارسية أعطتنا أربعين حرفاً مختلفاً، بينما كانت الكتابات الآشورية توحي بوجود ستمائة، بل إنَّ (بوتا) لاحظ ستمائة وأربعين. وقد كانت كتابة حجر بيستون، الذي به اكتشف الكولونيل رولنصون نظامه الآشوري، إذ إنَّه يحتوي على نحو مائة اسم علم كان بوسعه قراءتها في الجهة المكتوبة بالمسمارية الفارسية، فلاحظ بأنَّ رموزاً عديدة هي متطابقة، رغم ما فيها من اختلافات ليست بذات شأن[1]. وكان اسم الله مؤشراً عادة بعلامة أو مقطع، فكان ينبغي معرفة أي إله هو المقصود بالرمز، وكذلك بشأن اسم سنحاريب.

فإنَّ الحرف ـ المقطع الأول هو ما يحدد الإله الذي لا تعزى إليه أية قيمة صوتية، وأمَّا الحرف الثاني فيدلُّ على الإله الآشوري

(1) فإنَّ اسم سنحاريب وأسماء العديد من الملوك، ليست مكتوبة بأحرف الألفباء إنَّما بمقاطع أو رموز يتطلب حلّها أسلوباً خاصاً. ويبدو بأنَّ معظم أسماء الأعلام الآشورية كانت متكوّنة من لقب أو شعار أو اسم أحد الآلهة، تصاحبه كلمات كهذه: عبد، هبة، محب، كما لدى اليونان: تيوفيل، أيزيدور، أو لدى العرب: عبد الله، عبد الرحمن، وكان اسم الإله يؤشر عادة بعلامة أو مقطع، لذا كان ينبغي أولاً معرفة أي من الآلهة هو المعني بالرمز، كما في اسم سنحاريب فإنَّ المقطع الأول يحدّد الإله الذي لا تعزى إليه قيمة صوتية، أما المقطع الثاني فيدلل على الإله الآشوري (سين). وهكذا الأمر بشأن أسرحدون وسردانابال حيث يمثل الرمزان الأولان ملك الآلهة، آشور.

(سين)، وهكذا بشأن أسرحدون[1] وسردنابال[2] حيث يمثل الرمزان الأوَّلان ملك الآلهة: آشور.

فراودته فكرة القيام بمقارنة بين الفرس والميديين والأسقيطيين في عهد داريوس، كما فيما بين العرب والفرس والأتراك حالياً، حتى تمَّ له التوصل إلى عقد المقارنة بين اللغات، ولما ثبتت لديه الكلمات الأهم، لقي في الكلام شبهاً كبيراً بين العبرية والكلدانية القديمة.

إنَّ كتابات خورسباد لم تنحت قط على الواجهات الخارجية للقصور، بل كانت في الداخل على طول الجدران، وعلى أجسام وملابس التماثيل، كما بين أقدام الحيوانات. لذا فإنَّ الأقسام المكتوبة هي في حال جيدة من الحفظ. وهكذا هو الأمر بالنسبة لكتابات نينوى. فإنَّ المعماريين الآشوريين المكلَّفين بنقش الكتابات، كانت لهم عناية خاصة جداً لكي تبقى كتاباتهم، وتُصان ضد عواهن الزمن. أمَّا كتابات وان وبيستون فهي محفورة على أجزاء صخور مستوية متروكة في العراء، بعمق عشرة أو خمسة عشر سنتمتراً. وفي وادي بافيان، صنعت المنحوتات والكتابات على أجزاء من صخور محفورة عميقاً. وكان المعماريون، لحفظ الألواح التذكارية التي تحمل أسماء ملوك هم بناة الأبنية، يضعون تلك الألواح تحت ملاطات الدهاليز وفي سمك الجدران.

---

(1) أسرحدون ملك آشور 680 ـ 669ق.م.

(2) يكتب رحالتنا Sardanapal في مذكراته، ويقصد به آشور بانيبال (668 ـ 631ق.م) ابن أسرحدون، ويعتبر عصر آشور بانيبال عصراً ذهبياً. أو لعلَّ المقصود بسردانابال آشور ناصربال الثاني (883 ـ 859ق.م). وليس رحالتنا الوحيد الذي وقع في هذا الخطأ، بل سبقه آخرون، والسبب إطلاق الإغريق خطأ اسم سردانابال على آشور بانيبال.

لا يسعنا أن نحمي أنفسنا من شعور ديني ونحن نجتاز هذا البلد الذي كملت فيه جميع أحداث التاريخ شبه الخيالية في العصور الأولى، إذ سرعان ما يشطُّ بنا الخيال إلى مشاهد مختلفة، ويبدو الناس الذين يتحركون أمامنا وكأنَّهم محافظون على النموذج، والعادات، والمسالك، كما لشخصيات الكتاب المقدَّس. فهل كانت حياة إبراهيم ويعقوب وعبيدهما وقطعانهما مختلفة كثيراً عن حياة هؤلاء اليوم؟ الخروف الكبير ذو الصوف الأبيض المسترسل بخشونة، والعباءة الواسعة المصنوعة من القماش عينه، معقودة فوق الرأس بمجموعة خيوط قطنية متهدّلة على الظهر من أعلى المقطع، هل هي مختلفة حقاً عمَّا كانت عليه بالأمس؟ لقد كان هذا الوجود والواقع بعينه، بكل هدوء وبساطة.

نعود إلى الرسالة (الدومنيكية). يعلموننا بأنَّ مسيو ومدام سيوفي قد وصلا، لكنَّنا نمتنع عن الذهاب لزيارتهما حالاً، فهما لا شك متعبان بسبب مراحل (السفر) المضنية، وسيكون من عدم اللياقة حرمانهما من راحة يمنّيان النفس بها.

13 تشرين الأول (أكتوبر):

نخرج باكراً لكي نلتقط بعض المناظر للموصل رغم فضول الكثيرين الذين يحيطون بنا. أثر عودتنا، نمضي لدى المسيو سيوفي الذي يستقبلنا بكل لطف، كما كنَّا نتوقَّع. أصل مسيو سيوفي من دمشق، عمل ترجماناً مدة طويلة للشيخ عبد القادر وكان له صديقاً. إنَّه متبحر باللغة العربية. يمتلك مجموعة مداليات من أغرب ما يكون نزور المطران (المونسنيور) بهنام بني، رئيس أساقفة السريان الذي يعود معنا لدى الآباء. هؤلاء السادة مهتمون بسفرنا، فيدور الحديث حول السفر من الموصل إلى بغداد.

نخرج بعد الظهر بمعية مسيو سيوفي لزيارة جامع عجيب مدفون فيه السلطان لؤلؤ، المدخل وضيع، إلَّا أنَّ الباب البرونزي ذو صنع جميل، وقد جعل الصانع اسمه بارزاً وسط أحد الأطر. الضريح في الداخل، من خشب مشغول، وغطاء من قماش أخضر، والحيطان عارية ما عدا شريط مرمري بعلوّ متر حول الجدران، يعلو هذا الشريط شريط آخر من مرمر أسود، عرضه عشرون إلى خمسة وعشرين سنتمتراً، نُقشت عليه آيات قرآنية من تطعيم مرمر أبيض[1].

نعود إلى القنصلية، حيث يمسكني مسيو سيوفي على الغداء، ويريد أن يكرمني بهدية لطيفة هي كتابه حول ديانة الصابئة[2].

إنَّ هذه العشيرة، أو هذا المذهب المعروف في الشرق باسم اليوحانيين، والمعمدانيين، وحميريي سبأ، وخاصة المندائيين أو مسيحيي مار يوحنا المعمدان، إذ إنَّهم يدعون بأنَّهم تلاميذ القديس يوحنا المعمدان، من القدامى الأوائل. يعيشون على ضفاف دجلة، بين البصرة والكوت والعمارة. انسحبوا عن فلسطين بعد أن طردوا منها. وديانة الصابئة مزيج غير منسجم من أفكار غنوصية وطقوس مسيحية، وهي تختلف عن المسيحية، لأنَّها تنسب أقوال المسيح وأفعاله إلى يوحنا المعمدان.

---

(1) المقصود هنا مشهد الإمام يحيى أبي القاسم الذي بناه بدر الدِّين لؤلؤ سنة 637هـ، وهو من المباني الأتابكية الجميلة، وقد جرت له صيانة جيدة مؤخراً.

(2) ينقل بنديه ما سمعه من المسيو سيوفي وقرأ في كتابه الذي سيذكر عنوانه في الهامش التالي. ويجب تصحيح بعض الانطباعات بالرجوع إلى الكتب المعروفة عن الصابئة المندائيين من وضع الليدي دروور، وعبد الرزاق الحسني، وناجية مراني، وغضبان الرومي وغيرهم.

هذه الديانة هي الحقيقة خليط من اليهودية والنظريات المسيحية الكلدانية. واليهود والنصارى والصابئون هم أصحاب المذاهب الدينية الثلاثة التي أمر محمد ﷺ أن تُسامح وتُحترم. يحافظ الصابئون على نظم صارمة في الدِّين، ويمتنعون عن الختان، ويقبلون بالمعمودية، إنَّما باسم الله وحده، إذ لا يعترفون بالابن والرُّوح القدس. بوسع الزواج أن يكون في أي زمان كان، ومع أقرب المقرَّبين من الأشخاص، يأخذون العريسين باحتفال إلى ضفاف النهر، وثمَّة تتم كل المراسيم. الملّا (الكاهن) والگينزفرا مرتدياً ثيابه الكهنوتية، وبيده الخاتم وعصا زيتون، يتلو الصلوات المفروضة، ثم يقوم بتغطيس الزوجة الشابة في الماء على ثلاث دفعات، ويجعلها في المرة الثالثة تمرُّ من بين رجلي خطيبها، ويعلن عند ذاك اتحادهما بنوع كامل وغير قابل للانحلال.

لدى المسلمين، على الزوجين وحدهما أن يذهبا إلى الحمَّام غداة زواجهما. بينما يفعل ذلك جميع من في البيت، لدى الصابئة، أي كل من رقد حيث العريس، وكل من لمس الزوج أو المرأة، إذ عليهم جميعاً أن يقصدوا النهر ويتطهَّروا بالماء. وهكذا يفعل الصابئي كلَّما اقترب من امرأته.

ومن المحظور بصرامة لمس الميت. ولا يقوم الصابئون بغسلهم بأنفسهم، ولا يدفنونهم. ولكي يوفّقوا بين المحافظة على الشريعة ومقتضيات الواجب، توصَّلوا إلى هذه العادة غير المستحبة: حين يفترض بأنَّ ساعة النزاع قد أزفت، يعرون المدنف من ثيابه، ويقومون بغسله، ويلبسونه أفخر ثيابه، ويلفُّونه بآخر شرشف له، ثم في حفرة القبر ويتركونه يموت. وأهله وأصدقاؤه حوله يصلّون ويلولون حتى يلفظ النفس الأخير،

فيطبقون الحفرة وينسحب الجميع. وينبغي حسب الصابئة، أن تمرَّ أربعون يوماً لكي تصل النفس إلى الله، لذا فإنَّهم خلال هذه المدة يقيمون المآدب، صباحاً ومساءً، في بيت المتوفَّى على نية الميت، يشاركهم فيها ذووه وأصدقاؤه الحميمون[1].

كتابة الصابئة هي السريانية الجليلية. ولغتهم ضرب من السريانية المختلطة بكلمات فارسية كما باللغة الكلدانية القديمة[2]. لن ألحّ أكثر بشأن هذا المذهب الذي يعدّ الآن نحو خمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة.

مسيو سيوفي، مع أنَّه شاميّ، يقوم بأعباء القنصلية الفرنسية خير قيام. الغداء محترم قدر ما بوسعه أن يكون وهو بعيد عن موارد بلادنا. الخمرة وحدها ليست بجيدة. إنَّهم لا يعرفون أن يصنعوا الخمر من العنب الطريّ، لأنَّه لا يختمر عندهم، لذا يصنعونه من الزبيب، وكل منهم يعمل لنفسه الكمية التي تكفيه للاستهلاك.

تسلمت أثناء العشاء البرقية التي استمرت ثلاثة أيام للوصول من باريس. من الكلمات الأربع، اثنتان لم تكونا واضحتين، وبما أنَّهما كانتا بمثابة جملتين كاملتين، لم أتمكَّن من فهم أي شيء.

---

(1) مبالغات وانطباعات خاطئة يسجلها بنديه، ينبغي تصحيحها على ضوء المراجع المذكورة في الهامش السابق. ومعلوم بأنَّ عادة غسل الموتى قديمة ومعمول بها حتى اليوم في بعض الديانات. وما يحكيه بنديه عن تغطيس العروسين في الماء، هو رتبة العماد أو طقوس الغمس المعروفة لدى الصابئة، وقد يُستعاض عن ماء النهر الجاري بماء الحوض. وعادات الغسل والتطهير معروفة كذلك في ديانات مختلفة.

(2) يذكر الرحالة كتاب المسيو سيوفي، عن الصابئة: Siouffi, Etudes sur les Soubbas

وهذا ما يحدث مراراً. وفي التلغراف عادة خاصة، دفع (الأجرة، الضريبة) بالنقود الفرنسية، وعليَّ أن أدفع بحساب النابليون[1] أي ذهباً كما يُقال هنا. الموظفون لا يعرفون بعد الفرنك ولا الين أو الدولار، ويقومون بحسابات معقدة جداً لكي يحتسبوا القائمة بالقروش، إذ إنَّهم لم يروا البتة فرنكات فضيَّة، ولا يقبلونها عوض النابليون. ترى لماذا لا تستعمل تركيا عملتها الخاصة بها؟

14 تشرين الأول (أكتوبر):

نقضي الصباح بالحديث مع الآباء الذين يتقبلون عدَّة زيارات، منها زيارة المطران (المونسنيور) بهنام بني، الذي إذ علم بسفرنا، أرسل لنا أربع بطّات حسنة لكي نضيفها إلى مجموعة الدجاج التي نحملها في قفص خشبي.

وجاء مسيو سيوفي لكي يدعونا إلى الغداء في القنصلية بصحبة الأب دڤال. فتحدثنا عن سفر مدام سيوفي القادمة من دمشق. كان يرافقها أخوها مسيو دومنيك، والطريق عبر الصحراء طويل وخطر، والحماية ضرورية جداً. الماء شحيح في السهول المترامية الأطراف من بادية الشام، بحيث قد لا يصادف المرء خلال يومين أو ثلاثة ماء. لكنَّه طريق ذو أهمية، إذ يمرُّ المرء فيه بتدمر، قرب أطلال بالميرا[2] ومن السهولة هنا بمكان، التعرُّف على سبب اختفاء الماء تدريجياً، فإنَّ المؤلفين القدامى يتباهون بمياه تدمر الجارية وحدائقها ورياضها، بينما قد اختفت الآن السواقي

---

(1) Napolléon قطعة ذهبية ذات قيمة عشرين فرنكاً، تحمل رسم نابليون الأول أو الثاني.

(2) تدمر أو بالميرا Palmyre مدينة في بادية الشام. كانت عاصمة الزباء (زنوبيا) ومحطاً تجارياً للقوافل.

والبساتين والمدينة، وفي حياض الهيكل العظيم، هيكل الشمس ذي الأعمدة الألف، لم يبق سوى مجموعة وبضعة بيوت، ويقوم منزل حقير وسط الأخربة لكي يحمي نفسه من البدو: هذا هو كلّ ما تبقى من عظمة مدينة زنوبيا (الزبّاء).

البلد جاف جداً، بحيث يتحتم، للوصول إلى الدير (دير الزور) على الفرات، أن يتخذ المرء مؤونته من الماء من آبار تدمر الفقيرة. والدير موضع عسكري تركي. المدينة كبيرة نسبياً، يُزرع فيها الأرُزّ والقطن. ومن الدير إلى سنجار، مسافة سير يوم من الموصل. هناك مضى مسيو سيوفي لملاقاة زوجته. إنَّها الطريق التي تسلك للذهاب من الموصل إلى ميناء بيروت. غير أنَّه للوصول إلى أوروبا، يتم الإبحار عادة من ميناء الإسكندرية لاجتياز برية ديار بكر وأورفة، حيث توجد بحيرة اصطناعية جميلة تُسمى عين إبراهيم، يزعمون بأنَّ إبراهيم، إذ كان عائداً من إحدى الحملات، ولم يكن يعرف ما يصنعه لجنوده، سأل الله أن يتصرف كما يشاء، فحولهم الكائن الأسمى إلى أسماك (شبابيط)، وصنع هذه البحيرة ليكونوا فيها[1].

بعد الغداء، نخرج مع السيد (مسيو) دومنيك للقيام بجولة في الأسواق. يشتغل الباعة أمام حوانيتهم الصغيرة والمظلمة وهم ينتظرون الزبائن وسط صخب وجلبة المارَّة، ويعملون بصبر. وأحدهم يطرز الأقمشة، وثانيهم يثقب عيدان الغلايين، بينما ثالث يشعل الموقد لكي يعمل في الجلد مساءً.

إنَّه حيّ مملوء بالإسكافيين والخفَّافين، جميعهم يصنعون

(1) المقصود به إبراهيم الخليل أبا المؤمنين، وقصته معروفة في الأسفار المقدَّسة. (لكن الذي نعرفه أنَّ إبراهيم ﷺ لم يكن غازياً) .(الناشرون)

الأحذية الحمراء[1]. بعيداً عنه، نلقى سوق آنية الطين والفخار[2]، ثم يأتي باعة الأقمشة، معظمها أوروبية. والقصابون في حي آخر، وكميات الذباب كبيرة إلى درجة أنَّ اللحم يبدو مغطّى ببقع سوداء ضخمة. وعلى مبعدة من ذلك، في شارع آخر، نلقى الصاغة وهم منحنون فوق أفرانهم الصغيرة، ينفخون فيها، ويطرقون صفائح الذهب والفضة.

بعد قليل من المسير، نصل إلى بيت التاجر عبد الله شكر الذي بضمان من مسيو سيوفي، سوف يدفع لنا بوليصة (كمبيالة) ألف فرنك حتى بغداد.

هذا المصرفي المحترم، بعد أن يأخذ حسمه، يدفع لنا ليرات تركية، وروبيات هندية مقبولة هنا، وعملة غريبة جداً هي قطع تحمل صورة تيريزا الأم بقيمة خمسة فرنكات تقريباً، هذه القطع نافذة في أوروبا ما تزال مستعملة في حوض البحر المتوسط، من مدغشقر وزنجبار وزنزيبار وعدن وسواحل مصر وجزيرة العرب وبغداد وحتى الموصل، بل إنَّهم ما يزالون يضربون منها في النمسا لكي تستعمل هنا.

فور عودتنا، أعلم بأنَّ بريداً يسافر إلى بغداد يوم غد عن طريق البرّ، وسيصل قبلنا، أكتب إلى قنصلنا مسيو دي سارزيك[3]، ولو أنَّه قد أنبىء بوصولنا من قبل المونسنيور ألتماير ورسائل أحد

---

(1) منها على شكل أحذية خفيفة عادية، ومنها على شكل الجزمة، وتسمى الأولى في الموصل بالمشاية.

(2) إنَّه سوق الخزّافين والفخارين المعروف في الموصل بسوق الكوازين.

(3) E. de Sarzec أرنست دي سارزيك (1837 ـ 1901) نائب قنصل فرنسا في البصرة، وقنصل في بغداد، نقب في (تلو) في السنوات 1877 ـ 1900.

أصدقائي من باريس، لأنَّه من معارفه. لكنِّي كنت أريد تجنُّب مفاجأة كالتي حصلت لي مع الآباء (الدومنيكيين). وأرجو مسيو دي سارزيك أن يمنح كل الثقة لمراسل المصرفي إذا ما جاءه وسأله معلومات بشأن إمكانية الدفع من قبلنا، وبما أنِّي لا أريد التطفل وسؤاله الضيافة، رجوته أن يؤجر لنا بيتاً يمكن أن نحلُّ فيه لدى وصولنا.

15 تشرين الأول (أكتوبر):

حالما ننهض، نمضي لمعاينة الكلك. لقد أنجز نجَّار الآباء (الدومنيكيينُّ) المأوى الصغير الذي أردنا صنعه. لدى عودتنا لدى الجماعة (الدير)، نهتم باللوازم والاستعداد للسفر.

كل شيء يتوفر في الكلك: فواكه خضراوات، فحم، أفران، أقفاص بط ودجاج، خبز، أرُزّ، تبغ، شاي، مصابيح، شموع، خراطيش والخ.

غير أنَّه ما تزال ثمَّة أُمور صغيرة ناقصة، كما أنَّ تشييد القارب نفسه لم يكتمل بعد، بحيث إنَّنا نخشى بأن لا نتمكن من السفر مساء اليوم. ويزداد هذا القلق البسيط، لكون الغد جمعة، والمسلمون لا يسمحون أن نبتدىء طريقنا في يومهم المقدَّس، كما هو الأحد لدينا. إلَّا أنَّ مسيو سيوفي أكَّد لنا بأنَّ الجندرمة (الشرطة) دقيقون في مواعيدهم. وقد حجز الأب دڤال رجلين يجذفان ليقودا القارب، بحيث يجعلانه في وسط النهر دائماً ومع اندفاع المجرى، إنَّهما الكلاكان.

أحزم قدر ما أستطيع أغراض المجاميع من جماجم وألبسة وأدوات منزلية، أملاً في التمكن من إرسالها من بغداد إلى

متاحفنا. أمَّا بالنسبة لأمتعتنا الشخصية، فإنَّنا سنجمعها كيفما كان ساعة الرحيل.

يأتي بعد الغداء، ونحن داخلون، بعض الأشخاص لرؤيتنا ولتوديعنا، من ضمنهم السيد شيستر، وهو مهندس بافاري[1] موفد إلى الموصل لتشييد الطريق. المسكين هنا منذ سبعة أو ثمانية أشهر، لقد كان في البداية صاحب ضمير ورجلاً شغولاً، حاول أن يقوم بالمهمة التي أوفد من أجلها، فكان يكتب برقيات ورسائل إلى القسطنطينية لكي يرسلوا إليه ما هو ضروري لعمله، لكنَّه لم يتسلَّم أي جواب. فأشار عليه أحد أصدقائه أنَّه إذا ما استمر في إزعاج الحكومة، فإنَّهم سوف يعملون على استبداله. «إنَّك لست هنا إلّا للعرض فقط، فإنَّ تركيا تريد أن تظهر نفسها بأنَّها تهتم بأمر الأعمال. لك أن تحصل على مرتَّبك وتترك الحكومة بسلام. إنَّ الموظفين قد استبعدوا الأعمال التي تفكر بالقيام بها»[2]. منذ ذلك الحين لم يعد يجسر أن يتفوّه بشيء.

نمضي إلى القنصلية للمرة الأخيرة لتقديم احتراماتنا للمسيو

(1) Bavarie بافاريا، مقاطعة في جنوب ألمانيا مركزها مدينة ميونيخ.

(2) بوسع هذا أن يبدو غريباً إذا ما قسناه بنزاهة موظفينا من الأوروبيين. لكنَّني أستعبر موضوعين من رحلة مسيو ديلافوا (Dieu Lafoy):
«موظف صغير حكومي، بنى مبنى عاماً، بتعاون مع فرسان، ثم حرقه، وشيَّده من جديد، ولم يوجد هذا المبنى إطلاقاً!
وليس المسؤولون العسكريون بأقل من ذلك: لقد قالوا مؤخراً بأنَّ مجموعة جنود قد هلكوا في كمين، مع أنَّ هؤلاء لم يتركوا بغداد البتة، وإنَّما اخترعت هذه الخسارة الخيالية لتصحيح حسابات خاطئة وتغطية نفقات خفية في الأسلحة والعتاد، ولإعادة جنود إلى بيوتهم، فكان لا بدَّ للضباط من تغطية ما لم يكن صحيحاً» .(الرحالة)

سيوفي شاكرين قنصلنا المفضال. ونعود إلى مسكننا في الساعة الخامسة مساءً. كل شيء جاهز تقريباً. نحتاج إلى عشرين حمَّالاً لحمل معدَّاتنا وصناديقنا والأمتعة إلى القارب. قوَّاص القنصلية وقواص الدير (الجماعة الرهبانية) يشقَّان الطريق أمام خدمنا والجندرمة يسهرون على القطيع الغريب من الحمالين المحملين بأمتعتنا المتنوعة بشكل غريب.

اثنان من الآباء الدومنيكيين يرافقاننا حتى القارب. نستغرق نحو عشرني دقيقة لاجتياز المدينة والوصول إلى النهر حيث القارب. علم فرنسي صغير يرفرف في أعلى الخيمة. ويجب تنظيم كل شيء ووضعه في مكانه، لأنَّ المساحة ليست كبيرة. نترك الضفة في الساعة السادسة مساءً.

الموصل عام 1924م

في العالم أجزاء قليلة ـ باستثناء القوقاز، حيث لا مثيل لها من ناحية اختلاط الأجناس البشرية ـ تجعل مصمم الخرائط الخاصة بالسلالات البشرية في حيرة من أمره، مثلما تفعله المنطقة التي كانت تعرف يوماً ما باسم ولاية الموصل. ففيها تسكن طوائف متعددة حاضرها كماضيها، لا يعرف عنها إلّا النزر القليل. ومن النادر أن يشاهد المرء وهو يجوب سهل الموصل العظيم قريتين متجاورتين يقطنهما نفس الجنس ويتكلم أهاليهما لغة واحدة ويعبدون إلهاً واحداً.

فبينما تتواجد غالبية عربية في مدينة الموصل نفسها وفي السهل المحيط بها، وغالبية كردية في الجبال إلى الشمال والشرق منها، تتناثر بقايا شعوب أُخرى في المدينة والسهل والجبل، عرف بعضها فترات مجيدة للغاية في التاريخ، عكس وضعها الحالي التذبذب، والبعض الآخر فتاريخه يكتنفه الغموض لدرجة أنَّه من الصعوبة بمكان معرفة أصلهم وكيفية نشوء معتقداتهم.

ولكن يمكن القول بأمانة ـ إنَّ جميع الأقليات قد عانت الظلم والاضطهاد من أجل نيل الشهادة في سبيل الله والمسيح، وحتى ـ ولو يبدو الأمر غريباً ـ من أجل الشيطان نفسه.

ولم يسم الدكتور ويكرام (Dr. Wigram) كتابه الشيق عن هذا

الإقليم الرائع باسم «مهد البشرية» The crode of Marleirgl اعتباطاً، فإنَّ الأجناس التي تقطن هذه الديار واللغات التي تتكلمها والتقاويم الشهرية التي تستخدمها، تأخذ المرء بعيداً عن العصور الأولى لنشوء الحضارات إلى مراحل في تاريخ العالم تبدو الآن سحيقة في القدم.

فهنا نجد بين الأكثرية العربية والكردية، طوائف مسيحية عديدة منها: النساطرة الذين يُطلق عليهم البعض «الآشوريون» واليعاقبة مع فروعهم المتناظرة، والكلدانيون والسريان الكاثوليك، وقد نجد أحياناً الأرمن، بالرغم من أنَّ موطنهم الأصلي يقع بعيداً، شمال موحول (الأناضول) وأعلى بحيرة وان.

وكذلك نجد في المرتفعات الكردية، بقايا السبي البابلي المتمثل بالفرس واليهود الناطقين بالآرامية. وما زال اليهود تابعون لشيوخ القبائل ـ كما يتبع أو كان يتبع النساطرة من قبل.

وفي الغرب والشمال الشرقي من المدينة ـ الموصل ـ نجد أُناساً وادعين عانوا طويلاً من العذاب، ألا وهم اليزيديون الذين يعتبرون الشيطان أحد أوليائهم الرئيسيين. ونجد كذلك الشبك، وهم قبيلة غامضة النشوء وتمتهن الزراعة ولعلَّهم يؤلفون الشيعة الأكراد.

إنَّ الشبك يتكلمون لهجة غريبة، وليس لديهم جوامع وحسب جيرانهم إنَّهم بقايا غزوات المغول الكبرى، أي إنَّهم أثر حي من بقايا هولاكو وتيمورلنك.

كما نجد في الموصل عوائل من المندائيين أو ما يسمون بالنصارى أتباع يوحنا المعمدان، وهم طائفة من محترفي صياغة

الفضة ويمكن إرجاع معتقداتهم ـ كما سنرى ـ إلى القدماء الذين كانوا يعبدون القمر.

وعلى الرغم من أنَّك قد لا تعثر على الأتراك، إلّا أنَّك إذا تتبعت القوافل وطريقهم القديم من الموصل إلى بغداد فستجد مجمعات التركمان التي زرعها الأتراك على طول المواقع الاستراتيجية للطريق لصدّ الأكراد والفرس. ولقد زرع الأتراك أيضاً مستعمرات من السيركانيين Circassians والجاجانيين Chechens لدى زحفهم على الأقاليم العربية.

وتدلُّ أسماء الأماكن التركية مثل قويل تبه Gyol- tepe والتون كوبري Altun Kiopra على وجود هذه المستعمرات وتختلف لهجة التركمان التي يتكلمها الأتراك مع لهجات كُردية متعددة ومع العربية والسريانية (الشرقية والغربية) ولغتها الأُم الآرامية مكونة خليطاً عجيباً من الطورانية Turanianوالآرية Azryan والسامية Semtic.

والموصل شأنها شأن المدن العديدة التي كانت تحت الحكم العثماني، أضافت أسماءها كلمات عديدة وجديدة إلى اللغة الإنكليزية، فمن الموصل ومن خلال الكلمة الفرنسية موسلين Mousseline اشتققنا كلمة موسلين Muslin ومن Ascalan وصلتنا كلمة Shallot ومن القلفوط. ومن بغداد اشتققنا Buldaguin البغدادي ومن بيت لحم Betlehem أخذنا كلمة Bedum ومن كورنيث Cornith وصلتنا كلمة Currant ومن سايدونيا Cydonia أخذنا كلمة كوينس Quince ومن دمشق Domascus حصلنا على دامسن Damson أو دامسك Damask وأخيراً من الفسطاط عاصمة الأمويين في مصر Fustat اشتققنا كلمة فوستين Fustian.

صحيح أنَّ عمَّال الحياكة الموصليين لم يعودوا ينتجون النسيج الناعم الذي أذاع صيت مدينتهم في الآفاق. وإنَّ الأسواق فيها من اللحم والخضر والفاكهة أكثر من المنتوجات النسيجية التي كانت تصنع على المغازل اليدوية. إلَّا أنَّ عاصمة الجزيرة (يعني الموصل) أخذت تكتسب منذ الحرب أهمية جديدة في نظر العالم. إنَّ إعادة تنظيم الحدود في الشرق الأوسط أنقذ مدينة الموصل من الغموض الذي اكتنفها تحت حكم الأتراك.

وما أشبه الموصل برجال السياسة في أنَّها تغرس في الذين يعرفونها إمَّا عطفاً وتودداً نحوها، أو العكس تماماً وهكذا فإنَّ الإنسان إمَّا يمقتها أو يحبها كثيراً. الراحل السير مارك سايكس Sir Mark Skyes كان يمقت مدينة الموصل ذلك أنَّ عينيه اللتين تعودتا النظر بتسامح على دار الإسلام Dar al-Islam استاءهما منظر المدينة. كما أنَّ أنفه لم يستسغ رائحتها. ولما كان لدى السير مارك القابلية الأدبية على السبّ وبدرجة مؤثرة وعالية فإنَّه لا يدع مجالاً للشك في ذهن القارىء أو شعوره على صحة ما يقول. وهناك صفحات في كتابه «الخلافة تاريخ مفقود» The Caliphis lost History كرَّسها لطعن نينوى الحديثة «الموصل» لا تقل قسوة عن تلك التي أثارها أسلافه من الأنبياء القدماء. وهذه نماذج من الأوصاف التي أطلقها على مدينة الموصل: «هذه مدينة الطين والملاط»، «هنا مرتع المرض والرعب»، «إنَّها عش قذر للفساد والرذيلة والفوضى». وفي كتابه «مهد البشرية» فإنَّ الدكتور ويكرام، بالرغم من كونه أكثر تسامحاً مع الموصل، إلَّا أنَّه يشجب مناخها، واستقامة أعضاء بلديتها بنفس الحماس تقريباً. وفي إمكاني أن أفهم هذا كله من الذين أمضوا الصيف والشتاء فيها في عهد عبد الحميد عندما تدهورت وساءت أحوال المدينة بدرجة

كبيرة، أما بالنسبة لشخص مثلي لم يعرف الموصل إلَّا في جوَّها الحار ولا في أوضاعها السيِّئة التي عاشتها تحت السيطرة العثمانية ولكنَّه عرضها في بداية ربيع عام 1924 فإنَّ المدينة تبدو بحلة مختلفة. فإنَّ نسيمها الجبلي الرائع والمنشط وخضرتها الربيعية المبهجة تبدو على خلاف مع بغداد ذات الجو الرطب والوخم.

وللآنسة أي. س. ستيفنس في كتابها الأخير موقفاً أقل قتامة عن وسائل الراحة المتوفرة في المدينة. فبعد التحدث عن الحماس من أجل الإصلاح الذي نجح الحكم البريطاني في غرسه في صدور الموصليين فإنَّها تقول: «إنَّ الموصل بنظافتها وطلاقة هوائها. والمنظر العام لأحيائها توحي بإيطاليا أكثر من إيحائها بأية مدينة في الشرق. وأستطيع أن أقول بدون تملق إنَّ هناك مدناً معينة في جنوب إيطاليا قريبة الشبه من الموصل». إنَّني أتفق مع الآنسة ستيفنس حول نظافة المدينة وأضيف أنَّني لا أعرف مدينة شرقية بحجم الموصل حافظت على شرقيتها كما حافظت عليه. وشارع نينوى العريض المستقيم الذي يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب ويشطر بمساره أحياء المدينة وقصورها وأديرتها. أقول حتى شارع نينوى يحتفظ بصورة رائعة بمزايا فن العمارة الموصلي. وهكذا تبدو لي هذه المدينة حقاً أشبه بمدينة إيطالية ولكن على أسس غير تلك التي وضعتها الآنسة ستيفنس.

يقول الدكتور ويكرام Wigram بأنَّ كل منارة في المدينة لها ميلان واحد ما عدا المنارة الرئيسة حيث لها ميلانين. إنَّ هذه الأبراج المبنية من الطابوق البني اللون والمائلة باتجاه تحركات إبرة البوصلة في جميع جهاتها تذكرني بـ«بولكانا» Bologana وبرجيها اسينلي Asinolli وكاريسندا Garisenda المائلين باتجاهين معاكسين.

إنَّ التفسير الذي يعطي عن الميلان الحاد في منارة الجامع الكبير يبين عدم اهتمام المسلمين بالتسلسل التاريخي للأحداث الأمر الشائع في أساطيرهم. عندما عرج الرسول إلى السَّماء انحنت المنارة له في وقار عند مروره فوق الموصل، ولم تتمكن المنارة من استعادة وضعها الأول إلَّا بعد أن تمَّ تثبيت قمتها بشكل معاكس لما كانت عليه.

إنَّ المزايا التقليدية لفن العمارة الموصلي ليست جذابة فحسب، ولكنَّها سحيقة في القدم. فأسلوب البناء فيها ليس تركياً ولا عربياً! وبيوتها خالية من المزايا العمرانية الخاصة. هناك بعض التأثيرات الأوروبية من تركيا والمتمثلة بمصاريع النوافذ الخشبية الخضراء، والأكشاك المسنودة بعوارض خشبية من شجر الأرز ولا توجد فيها أبنية عالية وضيقة من الحجر ذات ثلاثة طوابق أو أربعة طوابق كما هو الحال في الجزيرة العربية وفلسطين وبالأخص في حبرون ونابلس.

وأبنية الموصل لا تشبه البيوت البغدادية والبصرية المبنية من طابوق غير منسق.

إنَّ شارع الموصل النموذجي عبارة عن زقاق طويل مُحاط بأسوار من الجص لا تخترقها الشبابيك، ولكنَّها بصورة عامة مكسوة بالمرمر الرمادي المبقَّع والجص الخاص بهذه المدينة، ولا يبدو رتابة المظهر الخارجي إلَّا المدخل المنحوت عادة بشكل جميل، ولكن المساحات الشاسعة من الحيطان الخارجية المطلة على الأزقة الضيقة تختبىء ما في الداخل، الأمر الذي يثير الدهشة في نفوس الذين يرون بيوت دمشق والأندلس.

تُبنى بيوت الموصل تقريباً وبلا استثناء حول فناء واسع ذي

طابقين محمول على أقواس تسندها أعمدة رخامية ويوحي للناظر أسلوب البناء الشائع في فترة النهضة الإيطالية، كل جزء في البيت مرصوف بالمرمر حيث تكسو الجدران الداخلية للأروقة ألواح من المرمر المنحوت بعناية فائقة وغالباً ما توجد في أحد جوانب الرواق مجاز عليه قنطرة (مقنطر) حيث تسترخي فيه العائلة بعيداً عن حرارة الجو.

أما العوائل الغنية فتملك في وسط فناءات بيوتها نافورات ماء حيث كثيراً ما يستمتع الموصليين كغيرهم من الشرقيين بسماع هديرها. ويزاح الماء المتدفق من هذه النافورات إلى أنفاق من المرمر التي بدورها تروي مزاهر البنفسج والسوسن.

أما ردهات البيت فهي واسعة ومرتفعة ومعقودة بشكل أسطواني. وإذا كان البناء قليل التحمل فإنَّ طراز البناء بقي قائماً لما يقارب الثلاثة آلاف سنة حيث هناك ملامح مشتركة. في طراز البناء الذي كان شائعاً عند الآشوريين القدامى، وما هو موجود في الموصل وعلى الأخص شكل البيوت المستدق الذي يشبه الأبراج وتصميم الأفنية وواجهاتها المغطاة بالمرمر.

إنَّ التنقيبات التي جرت في نينوى ونمرود وخرساباد قد كشفت النقاب عن نوع من البيوت الذي لم تتوقف مدينة الموصل عن بنائه أبداً. ويجب أن لا يفوتني أن أذكر بعض البيوت الفخمة القريبة جداً من ضفاف دجلة التي تفتح أقنيتها على النهر على شكل طبقات من Loggais قريبة الشبه من مثيلاتها إلى Plazza الواقعة على Grand Canal.

إنَّ المرمر في مدينة الموصل وطريقة نقشه أوجد نوعاً من الزخرفة التي أصبحت شائعة في الكنائس والجوامع على حد

سواء، حيث إنَّ القوس المستقيم هو الغالب على الأكثر، وليس هناك ما يميّز الأقواس ولبنات العقود الموجودة في كنيسة مار توما لليعاقبة أو كنيسة الطاهرة للسريان الكاثوليك عن تلك الموجودة مثلاً في جامع عون الدِّين.

إنَّ كنائس الموصل هذه ممتعة للغاية وتكمن متعتها في ردهاتها ومجازاتها وبأسكفتها الملثومة والمنحوتة بطريقة أوحت إلى أحد الجغرافيين العرب القدامى بالمهارات الفائقة لفن النحت الخشبي.

إنَّ هذه الميزة العمرانية خاصة بمدينة الموصل وضواحيها والمتمثلة بأروع صورها في دير ماربهنام الذي هو الآن تحت إمرة السريان الكاثوليك الواقع في سهل الموصل بالقرب من تلال نمرود.

ومن الكنائس الأُخرى التي تستحق الذكر في مدينة الموصل كنيسة مار شمعون الصفا الواقعة تماماً تحت مستوى الشارع مؤكدة بذلك عراقة قدمها. إنَّ هذه الكنيسة كانت بيد النساطرة، ولكنَّها أصبحت تحت إمرة الكلدان الكاثوليك عندما توجه النساطرة في المدينة إلى روما في منتصف القرن السادس عشر. ويعتبر بيت «جرن المعمودية» فيها أحد أقدم الآثار المسيحية في المدينة. وفي فنائها المغمور العديد من بلاطات الأضرحة القديمة التي تحمل نقوشاً سريانية شرقية. والفناء نفسه ما زال أو كان مدفن بيت عبد الجليل، العائلة المسيحية الأصل والتي بقيت لفترة طويلة زعيمة الأرستقراطية المسلمة في الموصل. وحكم الجليليون الموصل عدة قرون، بصورة شبه مستقلة ووراثية. ولم يتنحوا عن الحكم ولم تضم الموصل تحت الحكم العثماني المباشر إلّا عندما قرر السلطان عبد الحميد الثاني ـ لويس تركيا السادس ـ إنهاء سيطرة الولاة في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

أما جامع النبي شيت، الذي يقع في ضواحي المدينة الجنوبية ليس بعيداً عن الساحة الكبيرة حيث الثكنات والسراي، فهو من طراز آخر. هنا يبرز قبر النبي شيت بن آدم، أحد الآباء في الكتاب المقدَّس الذي أحاطه اليهود والمسيحيون والمسلمون بتقاليد كثيرة وسميت باسمه إحدى الطوائف الرومية المتعددة في المدينة.

قد يكون هذا الأمر وراء القباب المخروطة الشكل فوق الضريح والتي تخص طائفة أُخرى تشارك الطوائف الباقية أموراً روحية. أو ربَّما تكون القباب هذه عربية الأصل. أو قد تكون بُنيت بمحض الصدفة.

وتُنسب الجوامع السلجوقية الشهيرة في قونية «وهنا تختلط الحقيقة بالتقليد» إلى السلطان علاء الدِّين قاي قوباز الأول «مجد الدُّنيا والإيمان» وهكذا هو الحال أيضاً في الموصل حيث إنَّ الباني بدون منازع هو بدر الدِّين لؤلؤ الأتابكي «جوهرة السلطان» الذي في الإمكان تشبيهه بجوستينوس Juctinian. حكم الموصل في منتصف القرن الثالث عشر، بوقت قصير قبل أن تغرق بغداد والموصل في فيضان التتار والمغول.

إنَّ بدر الدِّين لؤلؤ يستحق الثناء الذي تقدمه له مدينته لأنَّه أغناها بعدد غير قليلٍ من المساجد والمعابد المبهجة. إنَّه هو الذي بنى جامع عون الدِّين وكذلك مرقد الإمام ابن يحيى الجميل الذي يطل على ضفاف دجلة إلى الشمال الشرقي من حصن سور الموصل. وبجانب المرقد يقف بشموخ بقايا قصره، قلعة لؤلؤ، الذي ما زال متعلقاً به جزء صغير، لكنَّه رائع وجميل من الزخرفة الجصية.

إنَّ اللفظة الصحيحة لاسم «موصل» هو الموصل، والتي تعني مكان اللقاء أو المواجهة أو عقدة المواصلات.

إنَّ المدينة في حقيقة الأمر تشبه الإقليم محل التقاء اللغات والمعتقدات. إنَّ أغلبية السكان من المسلمين الذين يتألفون من العرب وبعض الأكراد، ولكن ليس فيه أتراك أما الأقليات فتشمل اليهود، عدد قليل من المندائيين، واليزيديين، بالإضافة إلى طوائف مسيحية متعددة. وربَّما تكون أكثر الصفات التي تبعث السرور في النفس هو الزي الذي يرتديه المسلمون في الموصل. وعندما يرتدي أشراف الموصل أفضل ما عندهم فإنَّهم يفضلون القمبازات الحريرية الملساء ذات الألوان المبهجة والعباءات المنسوجة من أرقى أنواع الصوف.

إنَّ الزي الموصلي هو الوحيد الذي شاهدته في الشرق، والذي يشبه إلى حد بعيد الأزياء التي تعوَّدنا على مشاهدتها في المسرحيات الشرقية في إنكلترا. ويعطي السر سايكس رأيه في سكان الموصل في العبارة المميزة التالية: «إنَّهم أنيقو اللباس، دهاة سريعو الاهتياج وجبناء. وإنَّهم في نظري أكثر الناس بؤساً في الشرق. وقد أصابتهم الأمراض بسبب السنين الطويلة من حرمان العيش. يكرهون القرويين بكل الكراهية التي يكنّها الشخص العادي في لندن لقروي فظ وجلف، إنَّهم كسالى إلى درجة اليأس وأشرار بقدر ما تسمح به أجسامهم الواهنة. إنَّهم على استعداد أن يثيروا الشغب ويسفكوا الدماء بسبب تعصبهم ما داموا بعيدين عن الخطر. وإنَّهم على استعداد على أن يتهموا ويصرخوا بأعلى صوتهم أي شخص بالكفر، وعلى ذلك الشخص الغريب الهرب قبل أن يفارق رأسه جسده. إنَّهم يثيروا الاشمئزاز في نفس الناظر إليهم.

أيما تكون نظرة السير سايكس إلى السكان المسلمين في

المدينة مجحفة بعض الشيء ولكن لا يمكن الإنكار بأنَّ ذكاءهم سطحي خاصة وأنَّهم يوجد بينهم أُناس تافهون ولكنَّهم يفقهون جيداً في الأُمور المالية.

وفي الحرب عندما عسكرت القوات التركية بالقرب من مدينة الموصل احتكر الجند معظم المواد الغذائية في الريف وهكذا شحّت المؤونة في المدينة إلى درجة كبيرة وأصبح من العسير الحصول على اللحم، وصار الموت بسبب الجوع حدثاً مألوفاً وخاصة بين الأطفال. ووصل الجشع وحب المال برجل وزوجته إلى أن يفتحوا محلاً سرياً حيث كانا يطبخان فيه لحم الأطفال ويبيعانه. وبعد مرور أيام عديدة عثرت الشرطة على هذا المطبخ السري، وكما يُقال فإنَّ الفضل يعود إلى الأتراك الذين ما لبثوا أن شنقوا الزوجين على الفور بغضّ النظر عن مقتهم لإعدام امرأة مسلمة.

وهناك في الموصل كما في مدن إسلامية أُخرى عوائل عريقة في القدم ذوات تقاليد قديمة جداً، فعائلة النقيب الأشرف في الموصل التي هي بمثابة السجل الوراثي الذي يضمّ الهول في المحافظة تتباهى بفرمان حصل عليه أحد أسلافها من المغول الإيلخانيين في القرون الوسطى.

وليس في إمكان أي تقرير عن الموصل أن ينفي أو يتغاضى النظر عن الأساقفة المسيحيين القاطنين في المدينة وضواحيها. وقد تكون إنطاكية ببطاركها الستة الأولية علماً الموصل في هذا المضمار ولكن هذه الأسبقية نظرية فقط لأنَّ جميع البطاركة الستة يقيمون خارجها.

إنَّ المدينة الوحيدة التي تأتي في المقدمة على الموصل هي

«القدس» المدينة المقدَّسة التي لا يقطنها أربعة بطاركة وثلاثة أساقفة بالإضافة إلى خمسة عشر رجلاً من رجال الدِّين يحملون لقب «الخوراسقف» اسمياً. ولكن إذا وضعنا القدس جانباً، ويعزز هذه الأسبقية هي أنَّها أصبحت مرة أُخرى مركزاً للبطريركية النسطورية أو الآشورية.

ويترأس بطريرك الموصل الثاني كنيسة تشكَّلت من النساطرة الذين قبلوا سيادة البابا في القرن السادس عشر وأصبحوا كاثوليك. واتخذت هذه الكنيسة لنفسها لقب «الكنيسة الكلدانية». وبالرغم من أنَّ رئيسها يعيش في نينوى الجديدة يبتهج جداً بلقبه الطنَّان «بطريرك بابل» ورئيس هذه الكنيسة هو غبطة البطريرك مار عمانوئيل الثاني شخصية مؤثرة بلحيته البيضاء وعباءته وقفازته القرمزيتان وغطاء الرأس الخاص بالأساقفة والكهنة الكلدان وعصابته المسطحة من الساتان الأسود المفتولة مرات عديدة حول طربوش تونسي، واضحاً يبرز عن الرأس بمسافة عرض الكف. لقد كانت المغريات والمنافع التي منحتها روما على شكل مساعدات مالية والتسهيلات العلمية المتمثلة بمدرسة الدومنيكان الشهيرة في الموصل علاوة على الحماية من قبل قوة أوروبية من خلال القنصلية الفرنسية من الأسباب القوية التي أدَّت بنساطرة الموصل والقرى التي في السهل لترك كنيستهم القديمة التي كانت بين فكي كماشة، الباشا التركي والآغا الكردي. وهكذا لم يبق مع مار شمعون إلَّا سكان الهضاب المغروسة في جبال حكاري. بينما ضمت المدينة والقرى المكتظة بالسكان من حواليها الولاء إلى غبطة البطريرك (بطريرك بابل) ومعهم كنائسهم وأوقافهم.

ويقوم المبعوث الرسولي لبلاد ما بين النهرين الذي هو أحد

أساقفة الموصل والرئيس الروحي المباشر للكاثوليك اللاتين بتنسيق نشاطات وروابط الكنائس الكاثوليكية مع روما.

ويتماثل وضع الكنيستين الأخريين في الموصل بنفس الشيء مع وضع النساطرة والكلدان حيث إنَّ الأولى هي الكنيسة المونوفيزية القديمة والأخرى هي التي تفرعت منها مؤخراً وأصبحت كاثوليكية هي كنيسة السريان الكاثوليك. ويترأس هاتين الكنيستين بطريركاً من إنطاكية ويقيم بطريرك السريان الكاثوليك في بيروت، وكان بطريرك اليعاقبة (المونوفيزتين) يقيم حتى وقت متأخر قبل طرده من قبل الأتراك في دير الزعفران بالقرب من ماردين ويمثل الكنيستين أسقفان في الموصل، فأسقف السريان الكاثوليك هو المونسنيور هبرا، وهو رجل مثقف له أخوين مقيمين في إنكلترا وذات شعبية عريضة مع أفراد رعيته لدرجة أنَّهم لوحوا بالانشقاق عندما ورد قرار مؤخراً يقضي بنقله إلى مكان آخر (وهذا الموقف يحدث حتماً في الكنائس الشرقية). وقد استعار رجال الدِّين السريان الكاثوليك القبعة الطويلة غير المؤطرة من الكنيسة الأرثوذكسية ويضعون فوقها كإشارة إلى مرتبتهم الدينية زراً ذهبياً مزركشاً.

ويتفاخر الأساقفة اليعاقبة من ناحية أُخرى بغطاء رأس خاص بهم يتألف من عمامة منتفخة مدورة تصنع بواسطة طيات من الحرير الأسود حلزونية على إطار حلب من القماش. وبالرغم من بعض ضباط القوة الجوية الملكية R.A.F ـ غير الموفدين ـ قد وصفوها: بـ«القبعة السحرية» والسيدات الحسناوات قد نسبنها بآخر اختراع في عالم القبعات النسائية. إلَّا أنَّ العمامة هذه تضفي الوقار على الذين يعتمرونها حيث إنَّها تلائمهم جداً مع لحاهم المهيبة.

وهناك في الموصل عدد قليل من الناس يمثلون طائفة غريبة يترأسها شخص ذو مقام رفيع يحمل لقب الأسقف، رغم أنَّها غير نصرانية، وأنَّ هذه الطائفة عريقة في القدم، ربَّما هي أقدم من القلعة الباقية من السامريين Famortori الذين يعود أصلهم إلى الماضي السحيق. وفي الإمكان وصفها بأنَّها ليست فقط من البقايا الوحيدة الغنوصية بل الحلقة الوحيدة المتبقية من عبَّاد القمر في حاران القديمة المدينة المقدَّسة مدينة «السين» إله القمر ويُسمَّى أفراد هذه الطائفة «المندائية» Mandai ولغتهم الخاصة، وهي لهجة آرامية تكتب بخطوط تشبه البالميرية القديمة ولكنَّهم ينعتون أنفسهم عند حديثهم مع جيرانهم المسلمين «بالصبَّة» أو الصابئة أي المعمدانيين.

ويفسِّر هذا الوصف الأخير أحد طقوسهم الأساسية الذي يتألف من العماد والتطهير المتكرر بالغطس في الماء ولكن هذه العادة يمارسها المندائيون في تعاملهم مع المسلمين كي يحصلوا على التسامح الذي ضمنه الإسلام لطائفة تحمل نفس الاسم، لكنَّها انقرضت منذ زمان طويل والتي ورد ذكرها في القرآن وأنَّ أتباعها هم من الذين لديهم كتاب، ولقد أسسوا لأنفسهم علاقة مع النصارى أيضاً بواسطة رمز آخر من رموزهم الدينية حيث يسمون أنفسهم بـ«نصارى القديس يوحنا». إنَّ طقوس التعميد بالماء عندهم أقدم بالتأكيد من يوحنا المعمدان ولقد اعتقد المبشرون اليسوعيون الذين عرَّفوهم للغرب خطأ أنَّهم من تلامذة يوحنا الذي لم يدخل في دين المسيحيين.

إنَّ نظرة المندائيين المعقدة لنشأة الكون تستند على Gnosticism تلك التي تستمد جذورها من ديانة بابل القديمة ويفسّر بتشبث الغنوصيين بالطقوس المقدَّسة وأسرار المكانة البارزة التي يسمونها

بطقوس العماد المقدَّس وقربانهم المقدَّس الذي يكون عندهم كما عند النصارى من الخبز والخمر. ومن الأهمية بمكان أن يسكن المندائيون في الأراضي التي كانت قديماً تحت حكم الأمبراطوريتين الآشورية والبابلية، وفي مدن مثل الموصل وبغداد والبصرة وعلى الأخص في العمارة. لقد عاشوا وما زالوا يعيشون في مهد نظامهم الديني في موطن تقديس الشمس والقمر والكواكب الخمسة وها هم قد خلَّدوا وجودهم في القرن العشرين وعندما يصلّون فإنَّهم يوجهون قبلتهم تجاه نجم الشمال وقد لعبت الأبراج والتنجيم دوراً كبيراً في حياتهم. إنَّ الأهمية التي يعلقونها على العماد، والتطهير وشعائر الوضوء بكافة أشكالها تجبرهم على العيش بالقرب من الأنهار أو المياه الجارية لأنَّ العماد عند المندائيين ليس طقساً يؤدَّى مرة واحدة في الحياة. وإذا كان بعض الطوائف يحتفلون بعيد الميلاد كل شهر (ما عدا شهر آذار) فإنَّ المندائيين يتعمّدون على الأقل مرَّة كل أسبوع، فإنَّهم لا يؤدون طقس العماد كل يوم أحد كعادة روتينية فقط، بل إنَّهم يقومون بذلك إذا لمسوا شخصاً أو أشياء غير طاهرة طقسياً، والتي قد تضمّ الفواكه والخضراوات غير المغسولة أو الزبدة التي أعدَّها أو صنعها غيرهم.

أما فيما يخصّ حرفهم، فإنَّهم إمَّا صانعو قوارب أو صاغة فضة، وقد كسبوا شهرة حسنة في كل العراق لمهارتهم في تطعيم الفضة والذهب بالإثمد. إنَّ أعدادهم قليلة، وقد قدرهم اليسوعيون بـ 20 ألف عائلة في القرن السابع عشر وهذا يبدو مبالغ فيه كثيراً. ولا يعدو تعدادهم إذن حسب الآنسة ستيفنس عدَّة آلاف نسمة. وهكذا فإنَّ دورهم في العالم الحديث لا يعدو كونهم أُناساً يثيرون الفضول وحب الاستطلاع للمولعين بدراسة الأديان.

ومن الجدير بالذكر والملاحظة أنَّ المعلم ماني مؤسس المانوية كان من أتباع هذه الطائفة وقد نشأ فيها وحاول مزج تعاليم زرادشت مع تعاليم المسيح وقد لقيت محاولته نجاحاً كبيراً لبعض الوقت واعتنق تعاليمه طوائف أدخلت الاضطراب في الكنيسة الغربية إلى القرون الوسطى وحتى الآن تملك صدى بين بعض المنشقين راسكولينكي في روسيا Raskolniki .

الموصل المدينة القديمة

تميل مدن ما بين النهرين إلى التوسع على سواحل الأنهار التي تقع عليها. فبغداد التي كانت في أيام مجدها في عهد الخلافة العباسية محصورة في الضفة اليمنى من نهر دجلة، قد حوّلت مركز استقطابها الآن إلى الجهة الأخرى، بيد أنَّ الوضع هو العكس تماماً.

بالنسبة إلى الموصل ونينوى، فإذا نظرت باتجاه الشرق عبر دجلة من الموصل تشاهد على بعد مئات السيارات على ضفة النهر خطوطاً طويلة لأعمال سداد ترابية تمثل أسوار نينوى يتوجها ربوتان هما تل قوينجق[1] وتل النبي يونس. وفي هذين الموقعين أقام ملوك آشور قصورهم الفخمة. ولقد تمَّ التنقيب في تل قوينجق بشكل واسع جداً من قبل لايارد Layard وخلفائه. ومنه حصّل المتحف البريطاني كنوزاً لا تثمَّن. أما تل النبي يونس فلم تمسه لا أيادي مختلسي الآثار ولا التحريات من قبل علماء الآثار المنظمة. لقد بقي التل وقفاً على الملك الذي بناه، والسبب في هذا يعود بالدرجة الأساس إلى القرية الجميلة المبنية فوقه وإلى جامع النبي يونس الذي يقدّسه المسلمون. ويقدس المسلمون هذا الجامع المبني مباشرة فوق موقع قصر أسرحدون. ويكفي القرية

(1) قوينجق تعني الخروف الصغير.

أنَّها ما زالت تحمل اسم نينوى وكذلك تقاليدها القديمة إضافة إلى ما تخبئه من آثار مادية ثمينة تحت أرضية بيوتها. ولكن السؤال هو من الذي أتى بالنبي يونس إلى هنا وكيف ارتبط اسمه بهذا المكان الذي يغلفه الغموض واللغز. فبالأساس لم يكن الموقع جامعاً بل كنيسة نسطورية قديمة، وفي الحقيقة كان كاتدرائية للنساطرة عندما كان مركزهم الموصل، وإنَّ شاغل الضريح ليس النبي يونس بل البطريرك النسطوري يوحنا الأعرج. ويعلق ويكرام على هذا بقوله: «إنَّ لسمعته النصرانية البارزة في تحويره بعد الممات إلى نبي يقدِّسه اليهود والنصارى والمسلمين». وما زالت العوائق تحول دون إجراء أية تنقيبات في موقع يخبىء أحد أكبر الآثار العمرانية للأمبراطورية الآشورية.

وتتدلى فوق الضريح، بقايا الحوت الذي ابتلع النبي يونس وتتألف هذه البقايا من الهيكل العظمي «سياف البحر أو أبو سيف» لقد أسعدتني مشاهدة الضريح رغم يقيني أنَّه لا يحوي رفاته، لأنَّني أعلم أنَّ نبينا الذين لم يحالفه الحظ في رحلته، رُمي به من فوق المركب إلى البحر ولم يرحب به في منطقتين هما الإسكندرية Alexandrotta وباب أيبوس في إقليم بي Bub-in Younus in Ayorbos ولكن ممَّا يؤسف له أنَّ المقيمين على الضريح لم يعودوا يقدموا له كما كانوا في زمان ويكرام، الإبريق المذهب والطشت المذهب والصابون والمشط والمقص الأدوات التي كانت تساعده للقيام بالوضوء كما يمارسه مسلم متدين.

بيد أنَّ النبي يونس يتمتع الآن بمكانة أعمق بكثير من التي كانت له في زمانه، حتى الآن يُنظر إليه بطريقة تختلف عمَّا شيّع عنه في القديم من أنَّه كان يجلب الحظ السيِّىء لكل من حواليه،

ويجلب الحجاج القادمين إلى مزاره، وما أكثر عددهم في المنطقة إلى طاحونة القرية، وليس هناك من يستطيع إقناع أهل نينوى أنَّ العظام المعلقة فوق الضريح لا علاقة لها بابن متَّى فما زالت شعبيته في المنطقة في أوجها رغم موقفه من نينوى وأهاليها، وحزنه العميق عندما غفر الله ذنوبهم وأبقى على مدينتهم. ويبلغ تأثيره درجة أنَّ سكان الموصل ما زالوا يؤدون مرات من الصوم الذي التزم بها سكان نينوى القديمة لتجنب خراب مدينتهم وإلى هذا اليوم ما تزال كلمات الملك الآشوري: «يتجنب الطعام والشراب الرجال والماشية والحيوانات بأجمعها في مملكتي» تلقى أذناً صاغية، فلمدة ثلاثة أيام تدعى «باعوثة نينوى» (ابتهال أهل نينوى) من الشهر الذي يسبق الفصح، تتحد الطوائف المسيحية المختلفة هنا في أداء فريضة الصوم. وباستطاعتنا أن نقدِّر مدى الالتزام بهذا الصوم من إشارة بادجر إلى الكاهن النسطوري الذي كان معه حيث بقي رجل الدِّين هذا 72 ساعة لم يذق فيها لا طعام ولا شراب.

وهناك هذا الصوم وعدد قليل من التلال وهي الروابط الوحيدة بين نينوى اليوم ونينوى الماضي التي كان اسمها يملأ قلوب سكان العالم القديم بالرعب والخوف. لقد كان دمارها في عام 608 قبل الميلاد على يد الميديين والبابليين أحد أسوأ الحوادث التي حلت بالإنسان في التاريخ، لقد كان الدمار من الشِّدَّة درجة حيث إنَّ زينفون الذي سار بعد قرنين من هذا التاريخ بالقرب من أنقاضها لم يدرك أنَّها تعود إلى عاصمة الآشوريين العظيمة. كانت هذه الأمبراطورية العظيمة قد مُحيت عن الوجود عندئذٍ وأصبحت عاصمتها أثراً بعد عين. وما عدا استثناءات قليلة بقي هناك ذكر لملوك آشور الكالحي الوجوه والمرعبين قبل الناس الذين يعيشون

الآن في مقاطعاتهم. هناك ذكر فقط لـ«سميراميس» المرأة ذات القوة في قصر شمسي هداد الذي كان يلقب بملك العالم، ملك آشور حيث تسمى هنا شاه ميران تلك الامرأة الأسطورية التي يعزو الأهالي إليها كل بناء شامخ وعظيم في بلاد ما بين النهرين، وما زالت الأساطير المتعلقة بـ«نمرود» تعيش في كالح ولولا أنَّ قائد الشرطة الإنكليزي اسمه سركون، لما كان اسم هذا الملك الآشوري العظيم يتم ذكره هنا على الإطلاق. وماذا عن تغلت بلّاسر الأول الذي كان يصطاد الثيران الوحشية في لبنان ويستلم من عبده فرعون هدايا استرضائية من التماسيح والبرشيق، وسنحاريب الذي جعل نينوى عاصمة العالم القديم، وأسرحدون الفاتح والمعمّر، والمهيب آشور بانيبال الذي أحكم قبضة آشور على كل من بابل وعيلام ومصر، وكان لديه متسع من الوقت كي يرعى العلم والمعرفة ويوسع مكتبة سرجون. مع ذلك فقد كانت لكل الأيام أيام كوارث وحروب، وكان باستطاعة القائمين بها أن يقولوا: «وجهي يتهلّل لمشاهدة الأنقاض، وسعادتي تكمن في تلبية مطاليب غضبي» ومن ثم يقولون: «ذبحت واحداً من كل اثنين، بنيت سوراً أمام الأبواب الرئيسة للمدينة. سلمت جلد كبار العصاة، وغطيت السور بجلودهم. وقبر البعض منهم وهم أحياء في حائط السور، وصلب الآخرون على أوتاد على السور. وأمرت أن يسلخ جلد أعداد هائلة منهم في حضوري وغطيت السور به. جمعت الجماجم وعلّقتها على هيئة التيجان، أما أجسادهم فرتبتها على شاكلة الأكاليل».

ما أرعب ما كانت أيام هؤلاء الملوك أما اليوم فقد نسينا كبرياؤهم ومجدهم. إنَّهم بالنسبة ينطبق عليهم قول الشاعر الفارسي الذي يجعلنا أن نفكر كيف أنَّ:

«السلاطين في كل أمجادهم
قضوا زمانهم ورحلوا»

وعلى الموقع الذي يغطيه الحشيش الأخضر، حيث يقيمون تتواجد باسترخاء قطعان الماشية مع رعاتها. وبينما ترى الأغنام ذات الذيول الدهنية بسلام على المرتفعات والروابي والخنادق، فإنَّها تنفذ حرفية نبوءة Zephaniah الذي يقول:

«إنَّه سيجعل من نينوى مدينة مجدبة وقاحلة كالصحراء وترعى فيها قطعان الماشية ووحوش البرية، كيف أصبحت قفراً، ومكاناً للوحوش، وكل من يمرُّ بقربها تقطع يده».

* * *

لقد وقعت في المنطقة بين دجلة والزاب الأسفل بعض الحوادث الحاسمة في تاريخ آسيا. لقد كان الإقليم يسمى حدياب في ظل حكم الملوك الفرثيين وأصبح بعد فترة في حكم الأرسادسيدس Arsacidis. ونتيجة لسياسة التسامح التي اتبعها الأرسادسيدس أصبحت حدياب ملجأ للنصارى الهاربين من الاضطهاد الروماني، وتحولت بهذه الطريقة إلى أحد المصادر المهمة لكنيسة الشرق وفي منتصف هذه البقعة من الأرض، بين الزابين تقف مدينة أربيل الكردية منتصبة فوق تل أربيلا[1] حيث خزن داريوس الأخير كنوزه قبل أن يطيح به إسكندر في موقع كومل على بعد نحو 20 ميلاً. وهنا، وقبل قرنين من الزمان قاد زينفون المرتزقة اليونانيون الذين ساندوا سايروس الصغير المهزوم، ونظم انسحابهم بشكل رائع خلال موطن

(1) كلمة أربيلا مشتقة من الأصل الآشوري القديم اربا ايلو أي «أربعة آلهة» وهو ما كان يمثل المعبد الكبير للآلهة عشتار، وتُعد أربيل المستوطن الآشوري المهم الوحيد الذي احتفظ بتسميته، واستمر به السكن إلى يومنا هذا.

الأكراد وسكنة الجبال العدائيين إلى أن أوصلهم إلى ساحل Pontus الأمين. وكانت المنطقة قبل هذا الحادث مركزاً للأمبراطورية الآشورية، حيث مدينة نمرود التي كانت تسمى كالح قديماً والواقعة على مقربة من رأس المثلث الذي يتكون بالتقاء الزاب الكبير بدجلة وهذه المدينة أقدم من نينوى كمركز أقامه الملوك الآشوريون ويدخلها لايارد ضمن ضواحي نينوى الكبيرة مع خرساباد وكرمليس.

«وولد كوش نمرود، وأصبح هذا قوياً في الأرض. لقد كان صياداً عظيماً أمام الرب، حيث قيل، مثل نمرود الصياد العظيم أمام الرب. كانت بداية مملكته في بابل واريخ وأكاد في بلد شينار. ومن هناك ارتحل إلى آشور وبنى نينوى، ومدينة ريمويوث وكالح».

أخذنا الطريق إلى نمرود أولاً إلى ضفاف الزاب الكبير الذي كان الأقدمون يسموه Lycus حيث تغذينا بجانب المياه التي ابتلعت الألوف من جنود داريوس وهم يولون الأدبار أمام فرسان إسكندر. ومن ثم سرنا من خلال أميال من الحقول المتموجة المزروعة بالشعير، إلى أن بدت لنا في الأُفق الزقورة التي في كالح، مدينة شلمنصر الأول والتي تسمى الآن نمرود. ونتيجة لجهود لايارد فقد أغنت هذه المدينة المجموعة الآشورية في المتحف البريطاني أكثر من نينوى وتترنح من فوق الأنقاض المتراكمة نتيجة للتنقيبات التي أجراها لايارد دزينة من المداخل الآشورية وهي في حالة جيدة تحرسها أزواج من تماثيل المرمر المحلى لها بأجسادها المؤلفة من الثيران والأسود ورؤوسها البشرية وأجنحتها المنقوشة بكتابات مسمارية. وتغطي الموقع كسر من الآجر المختوم وفي أحد الأخاديد الكبيرة يظهر تمثال حجري ضخم لملك أو إله آشوري هناك شيء مثير بخصوص هذا العملاق المغمور إلى نصفه في التراب الذي

يشتهر عند البدو باسم ملك نمرود. إنَّه يثير الشفقة. فهو يقف لا حول له ولا قوَّة، أمام نظرات الرجال الفاحصة كأنَّه يتوسل إليهم بصمت أن يطمروه بالتراب مرة أخرى كي يتخلص من الاحتقار والتشويه الذي سيلحق به.

ويورد لايارد سبب بغض المحليين للملك نمرود، وقد قصَّ عليه أحد شيوخ قبيلة الجحيش من الذين كانوا يعملون معه هذه القصة التي تخصّ أصل القصر في نمرود. فقال الشيخ: قام آشور والقائد نمرود ببناء القصر. وعندما أتى نبي الله إبراهيم ﷺ إلى نمرود وحطم الأصنام التي كان الوثنيون يعبدونها غضب الكافر نمرود على ذلك فشنّ الحرب عليه محاولاً قتله ولكن النبي دعا إلى الله قائلاً: نجني يا رب من هذا الرجل الذي يعبد الأحجار ويتكابر جاعلاً من نفسه سيد كل الأحياء فأجابه الله: «كيف السبيل إلى معاقبته» قال النبي: «إنَّ العساكر بالنسبة إليك لا تساوي شيئاً مثلها قوَّة وسطوة البشر وسيهلك جميع البشر أمام أصغر مخلوقاتك، وفرح الله بعمق إيمان النبي. فأرسل بعوضة أقلقت مضجع نمرود نهاراً وليلاً فبنى لنفسه غرفة من الزجاج في القصر على الطرف الآخر ليعيش فيه وأغلق الباب في وجه الحشرة، بيد أنَّ البعوضة انسابت إلى الداخل ودخلت في أذنه ومن هناك إلى دماغه وأخذت تعيش عليه وبدأت تكبر يوماً بعد آخر لدرجة أنَّ خدم نمرود كانوا يطرقون رأسه بالمطرقة باستمرار للتخفيف من شدَّة الألم الذي كان يعانيه لكنَّه توفي بعد بقائه في هذا العذاب الأليم لمدة 400 أربعمائة سنة.

* * *

وقبل العودة إلى بغداد حظيت بزيارة مدينة الحضر القديمة

بواسطة الطائرة. تقع هذه المدينة على نحو خمسين ميلاً جنوب غرب الموصل وتحيطها من كل الجوانب السهوب غير المأهولة التي كانت يوماً أرضاً زراعية خصبة. وكانت المدينة بمثابة حصن منيع في زمن الوثنيين واستطاعت أن تحمي الحدود الغربية من فيالق الرومان العسكرية ولم أشاهد ولا شخصاً واحداً في الريف الواسع الذي مررنا فوقه في طريقنا من الموصل إلى الحضر. وقد كانت هذه المنطقة جزءاً من المخازن الكبيرة للحبوب في العالم القديم الذي كان في قديم الزمان جزءاً من أهراء الحبوب العظيمة في العالم القديم. ويا لها من مفارقة عجيبة التي جمعت بين هذه الصحارى القاحلة والبقايا الضخمة لهذه المدينة العظيمة المبنية من الحجر ومن خلال المنظر العام للمنطقة الذي وفَّرته لنا الطائرة استطعت مشاهدة خطط المدينة، وخندقها، وسورها الخارجي وحصونها الموزعة بانتظام، وقلعتها الداخلية ومبانيها العامة بوضوح. ليس هناك ما يوحي بالبساطة في المعمار العظيم للحضر. فكل ما هناك هائل وثقيل وجميل إضافة إلى كونه ذا جمال أخَّاذ. فحيطان الأبنية ثخينة جداً والأبنية نفسها شامخة ومتينة، وليس هناك الكثير من الزخارف في المدينة فميزتها الأصلية هي سلسلة لرؤوس حجرية نُحتت في قاعة يعتقد أنَّها كانت جزءاً من القصر، ودمر الساسانيون الحضر بعد أن أزاحوا أسيادهم الفرثيين من على العرش الأمبراطوري الفارسي، ومنذ ذلك الحين هجرت المدينة إلى هذا الوقت. وتبدو أسوارها وأقواسها كأسنام الجمال التي تترنح في الرمال الصحراوية.

مصادر البحث

1 ـ رحلة نيبور إلى العراق، ترجمة الدكتور محمود حسين الأمين.

2 ـ دبليو. أي. ويكرام، ـ مهد البشرية ـ ترجمة جرجس فتح الله، مطبعة الزمان ـ بغداد ـ 1971.

3 ـ سر بدج، ـ رحلات إلى العراق ـ الجزء الأول، ترجمة فؤاد جميل، دار الزمان ـ بغداد ـ 1966.

4 ـ جمس بكنغهام، ـ رحلتي إلى العراق ـ الجزء الأول، ترجمة سليم طه التكريتي، مطبعة أسعد ـ بغداد ـ 1968.

5 ـ بيير دي فوصيل، ـ الحياة في العراق قبل قرن، ترجمة الدكتور أكرم فاضل، دار الجمهورية ـ بغداد ـ 1968.

6 ـ الميجرسون، ـ رحلة متنكر إلى بلاد ما بين النهرين ـ الجزء الأول، ترجمة فؤاد جميل، الطبعة الأولى ـ بغداد ـ 1970.

7 ـ دومنيكو لانزا، ـ الموصل في الجيل الثامن عشر ـ تعريف القس روفائيل بيداويذ، مطبعة النجم ـ الموصل ـ 1951.

8 ـ تافرنييه، ـ العراق في القرن السابع عشر ـ ترجمة بشير

فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة المعارف ـ بغداد ـ 1944.

9 ـ ميرزا أبو طالب خان، ـ رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوروبا ـ ترجمة الدكتور مصطفى جواد، مطبعة الإيمان ـ بغداد ـ (بلا تاريخ).

10 ـ ج. أ. أوليفييه، ـ رحلة في الأمبراطورية العثمانية ـ ترجمة الدكتور داود الجلبي، نسخة خطية في خزانتنا نقلناها عن نسخته في مكتبة الأوقاف الآن.

11 ـ جون فيي، ـ الآباء الدومينكان وخدماتهم الطبية في الموصل ـ نسخة خطية في خزانتنا نقلناها عن النسخة الأصلية للمؤلف.

12 ـ وليم هود، ـ نسخة خطية في خزانتنا نقلناها عن النسخة لمترجمة لدى الأب البير أبونا.

13 ـ مجلة بين النهرين، ـ أعداد ـ 8 سنة 1974، 9، 10 سنة 1795 فيها رحلة بادجر ترجمة الأب لويس ساكو.

14 ـ جريدة البلد، ـ رحلة فيجهولت ـ 1967/ 5 شباط، ترجمة مير بصري.

15 ـ عماد عبد السلام رؤوف، ـ الموصل في العهد العثماني ـ مطبعة الآداب في النجف 1975.

16 ـ مجلة مجمع اللغة السريانية، مجلد 1 سنة 1975 ص194 ـ 198 رحلة فنشنسو، ترجمة الأب الدكتور بطرس حداد.

17 ـ جاكسون، ـ مشاهدات بريطاني في العراق ـ تعريب سليم طه التكريتي.

